الفصل الخامس

الحالة الاجتماعية في أم درمان قبل قيام المهدية:-

قبل أن نتحدث عن الحالة الاجتماعية في أم درمان يجدر بنا أن نلقي الضوء على حالة المجتمع قبل المهدية. لقد كان الأمر ملفت للنظر وقتذاك وهي ظاهرة تعدد الولاءات القبيلية والدينية وتنظيمات الطرق الصوفية والأولياء والمشايخ والعلماء فضلاً عن الولاء السياسي للدولة التركية. الذي كان يتمثل بشكل ملحوظ في المدن ولدى الموظفين والعاملين في أجهزة الدولة بشكل عام. فلقد بلغت الولاءات القبلية درجة التعصب[١].

فلقد كان المجتمع السوداني وقت ذاك مجتمع قبلياً، اتسم بكل سمات المجتمعات القبلية من تعصب وتفتت وتناحر وسرعان ما برز بجانب الولاء القبلي ولاء آخر وهو الولاء الروحي الديني الذي تمتع به رجالات الدين من زعماء الطرق الصوفية والعلماء[٢] أضف إلى ذلك النزاعات التي كانت تنشأ بين القبائل المختلفة[٣] وقد أدت ظاهرة الولاء هذه إلى تفكك المجتمع السوداني وحولت النظام القائم بأمر السودان يفرض أنظمة اقتصادية واجتماعية غريبة على المجتمع السوداني وقتذاك وكان ذلك دافعاً لقيام الثورة المهدية لإصلاح المجتمع[٤].

وقد شملت تلك الأوضاع الاقتصادية الجديدة كل الأنشطة الاقتصادية في البلاد والتي تحدثنا عنها في الفصول السابقة وهي " العشور – الضرائب وجبايتها وأيضاً تجارة الرقيق" أدى ذلك للضعف الأخلاقي المتمثل في الفساد بوجه عام هو الذي جعل الإحساس بالتناقض بين الحاكم والمحكومين"[٥].

كما أن التعليم الحديث ظل وقفاً على أبناء المستخدمين الأتراك المتمصرين وعدد قليل من أبناء أثرياء السودان. ومن جهة أخرى رفض معظم السودانيين إرسال أبنائهم للمدارس لاعتقادهم إنها تدعوهم إلى الكفر والإلحاد[٦].

لهذا فضلوا الخلاوي والمعاهد الدينية الإسلامية على المدارس الحديثة. كما أحيا الأتراك المتمصرين العصبية القبلية، وسعوا إلى خلق الطبقات الاجتماعية في البلاد باسم الحضارة الحديثة أدخلوا كثير من الأفعال الغريبة على المجتمع السوداني، مثل ظاهرة الفخامة والصرف التفاخري في مناسبات الختان والأعراس وشارك بعض سكان الخرطوم في إقامة حفلات الأعراس وشارك في إقامة حفلات الغناء والرقص في منتديات وقهاوي على ضفاف النيل بالخرطوم ومن الأغاني التي كانوا يتغنون بها" الأخضر الليموني التيني والزيتوني"[٧].

---

(١) محمد عوض، السودان الشمالي، ص ١٦٤، بدون تاريخ.

(٢) عبدالقادر محمد: الفكر الصوفي في السودان، ص ٦٤. بدون تاريخ.

(٣) محمد عبدالرحيم "د"، العروبة في السودان، ص ٦٤، بدون تاريخ.

(٤) إبراهيم شحاته" د" ، مصر والسودان، ص ١٠٤.

(٥) سلاطين باشا، السيف والنار، المصدر السابق، ص ٧.

(٦) محمد إبراهيم أبو سليم، تاريخ الخرطوم، المرجع السابق، ص ٤٢.

(٧) نعوم شقير، المرجع السابق، ص ٥٤٣.

أضف إلى ذلك مشكلة الأرقاء الذين كان لهم تأثير كبير في الحياة الاجتماعية في السودان والتي تعرضنا لها سابقاً[1].

وما خلصنا إليه من هذا بعد الوقوف على جملة هذه المشاكل التي كانت تثقل كاهل المجتمع السوداني بأن المهدية كانت تنظر إلى ترقية المجتمع السوداني وربطه بالدين وقد تختلف نظرتها عن نظرة العلمانيين بين الذين يقيسون تقدم المجتمع بمقدار ما كسبه الفرد من تنمية وتطور ورفاهية. فقد نظرت المهدية إلى المجتمع بالمنظور الإسلامي الشامل الذي يرى أن حياة المجتمع بما فيها من حقوق وحريات جزء من العقيدة الإسلامية لا يتجزأ . فالله سبحانه وتعالى كرم الإنسان وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً وأنزل إليه من الشرائع الدينية ما تحفظ له حقه وحريته وحياته الكريمة.

والقرآن الكريم يؤكد على الكرامة الإنسانية، ويحترم إنسانية الإنسان، بغض النظر عن أي اعتبار آخر، فالإنسان هو خليفة الله في الأرض (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة)

أهداف ومرامي المهدية الاجتماعية:

كانت هناك أهداف ومرامي اجتماعية للثورة المهدية التي كانت مرحلتين اصطبغت الأولى بصبغة دينية بحتة بينما تعددت سمات المرحلة الثانية وتداخلت، فالخروج على النظام التركي المصري القائم والعزم على تقويضه وإقامة نظام بديل[2]. أمر تحدد منذ الوهلة الأولى بين المهدي والحكومة في ١٨٨١م وهو أمر كان يعني بالضرورة تغيير الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي في آن واحد. لم يكن الهدف تقويض النظام التركي المصري القائم وقتذاك وإقامة نظام بديل غايته عند المهدي في حد ذاته لم يكن لتحقيق مطلب شخصي[3] إنما الهدف الرامي إلى التقويم والإصلاح وتنقية المجتمع من الشوائب التي لحقت به والعودة لصفائه كما كان في عهد الرسول ﷺ وصحابته يوم كان الإسلام دين ودولة[4].

إذن لقد كانت المهدية حركة تطهيرية تهدف لخلق حياة المجتمع السوداني كخطوة أولى يعقبها تطهير العالم أجمع ولربط الدين بكل مناشط الحياة وتحقيق المساواة في الحقوق والواجبات الدينية كما كان الصحابة رضوان الله عليهم كما يقول المهدي أي خلق دولة[5] ثيوقراطية[6].

ومن أهم أهداف الدولة المهدية القضاء على المشكلات الاجتماعية الكثيرة أبرزها ظاهرة التشرد الاجتماعي التي أدت إلى هجرات جماعية للسكان من المدن والقرى إل مناطق خارج نفوذ الحكم التركي بسبب كثرة الضرائب. وطرق أساليب تحصيلها، كما واجهت ظاهرة الفقر والجوع وسط قطاع كبار السن والمقعدين والمكفوفين.

---

(١) الدكتور بشير كوكو حميدة ، السودان في عهد الخديوي اسماعيل " ١٨٦٣- ١٨٧٩م". رسالة دكتور مقدمة في الجامعة الخرطوم، كلية الآداب، قسم التاريخ ١٩٧٩م، ص ٤٣٣.

(٢) مهدية ٤١/٩، من المهدي إلى الشيخ محمد الطيب البصير، ص ١٠٢.

(٣) مهدية ٤/٩ من المهدي إلى أحبابه في الله، ص ٩٤.

(٤) منشورات " ج أ " من المهدي إلى أحباب الله وأصفيائه أنصار الدين، ص ٢٣٠.

(٥) منشورات " ج" من المهدي، ص ١٤٣.

(٦) ثيوقراطية أي دينية.

فكانت هذه الظواهر التي ورثها المجتمع السوداني وظل يعاني منها ردحاً من الزمان، كما أن هناك وضع المرأة الاجتماعي وحقوقها ومشكلة أهل الذمة والأوربيين والأقباط وغيرهم ممن وقعوا أسرى في قبضة الدولة المهدية هذا إلى جانب تجاهل حكام العهد التركي أوربيين وقساوسة مسيحيين المشاعر الدينية للسودانيين الذين اشتهروا بالقيم والأخلاق والتقاليد والأعراف السودانية، واعتبروا أحكام الشريعة الإسلامية مقيدة لحرية الإنسان في السودان وخاصة المرأة. والظاهر أن السودانيين نظروا إلى القوانين الوضعية التي جاء بها الحكم التركي المصري نظرة ريب فاعتبروها موجهة ضد عقيدتهم لطمث أحكام الشريعة الإسلامية فأدى ذلك لظهور مفاسد اجتماعية كثيرة قام بها أولئك الحكام والمواطنون، ومن أبرز المفاسد التي انتشرت في المجتمع السوداني في العهد التركي الرشوة، السرقة، الاختلاس، التزييف، التزوير والظلم، والتعذيب والسخرة.

وكما اختصرت الخدمات الاجتماعية في العهد التركي في مجال التعليم والصحة على ضوء حاجيات الأجانب من أوروبيين وشوام ومصريين وأسرهم، حيث كان الحكام الأتراك غير متحمسين لتقديم خدمات صحية للسودانيين فقد تركوهم يتعاجلون بأساليبهم وطرائقهم التقليدية السابقة [1].لهذا كله كانت هذه الأهداف والمرامي الاجتماعية التي قامت من أجلها الثورة المهدية.

(١) ٢٠ دفتر صار ٢٧٨، ترجمة وثيقة تركية رقم ١١٦، من الجناب العالي الباشا الكنخرا بتاريخ ٢ جمادى الآخر، ١٢٥٤هـ/٢ ديسمبر ١٨٣٨م، دار الوثائق القومية بالقاهرة.

العناصر التي كونت مجتمع أم درمان في المهدية:

تكون سكان أم درمان في المهدية من خليط من الأجناس المختلفة والقبائل التي تمثلت في ذلك العدد الضخم من المقاتلين الذين حضروا مع المهدي ونزلوا في أبو سعد جنوب أم درمان للحصار حيث استقروا في أم درمان بعد أن اتخذها عاصمة المهدية. وقد كانت لتلك الوفود والمجموعات الكبيرة التي أتت مع المهدي وبعد قيام أم درمان كعاصمة، أثر كبير في أنها كونت المجتمع الأول في المهدية لأم درمان. وبالإضافة لتلك القبائل والأجناس السودانية كان المرء يجد في هذا الخليط بعض الأجانب الذين كانوا قد قدموا مهاجرين إلى السودان. فمنهم من بقي من العهد التركي المصري ومنهم من قدم للتجارة واشتغل في السودان مثل أولاد الريف الذين عملوا بالزراعة والمغاربة والشوام والأوربيين وغيرهم. بالإضافة إلى ذلك نجد عنصر آخر يسمى بالمولدين وهم الفروع الخلاسية التي تولدت من اختلاط هذه الأصول ببعضها البعض.

وسوف نتناول في هذا الفصل العناصر الهامة التي أسهمت في ذلك المجتمع الأول وكانت صاحبة النفوذ والسلطة وهم عنصرين هامين أولاد البلد وأولاد العرب أو الغرب. وقد قصد بأولاد البلد سكان النيل المستقرين من غيرهم من العناصر الأخرى[١] كما تورد بعض المصادر بأنهم الجعليين والدناقلة والشايقية والبرابرة[٢] والجوامعة والبديرية والغدبات والجموعية والجمع وغيرهم من القبائل المستقرة على النيل[٣].

كما عرف أولاد البلد بمصطلح آخر وهو الجلابة، وذلك لما كانوا يجلبون من تجارة للبلاد التي سكنوا فيها وأما كلمة بحارة فتطلق على الذين يعملون بالملاحة من القبائل التي سكنت قرب النيل[٤].

وقد عرف أولاد البلد بمدى تحضرهم وثقافتهم مما كان له كبير الأثر في ذلك التنافر الذي حدث في مجتمع أم درمان. وقد عملت فئة من أولاد البلد "الشايقية" بصفة خاصة في فرق الباشبوزوق وكانت مميزة عن بقية القبائل في السودان الأمر الذي جعلهم في عداء مع المهدية لأنها في رأيهم قد أودت بمصالحهم وينحدر من أولاد البلد الإمام المهدي والخليفة شريف ومحمد خالد زقل والياس أم برير وكرم الله والكركساوي ومحمد عثمان أبو قرجة وعبدالرحمن النجومي وآخرون مما اشتركوا في المهدية[٥].

أما العنصر الثاني أولاد الغرب فإنه يتكون هذا العنصر من البقارة، الرزيقات، التعايشة، المسيرية، الحمر، الهبانية والحوازمة ويرجع إسم البقارة للقبائل التي تحترف رعي الأبقار وقد ميزتهم هذه التسمية عن جيرانهم والرعي. تسكن معظم

---

(١) نعوم شقير، جغرافية السودان، المصدر السابق، ج الأول ١٢٥٣.

(٢) البرابرة هم سكان بربر.

(٣) محمد سيد " د" الصراع بين أولاد البلد وأولاد العرب، ص ٥.

(٤) الشيخ عبدالرحمن الضرير، كتاب العربية في السودان، بيروت ١٩٦٧ ج الأول، ص٨.

(٥) محمد إبراهيم أبو سليم، الحركة الفكرية في المهدية، ببيروت، ١٩٨١م، ص ١٨- ٢٣- ٢٥.

هذه القبائل في كردفان ودارفور ويعملون بالزراعة[1] وقد اشتهروا بالأعمال الحربية ولهم صفات تشبه صفات الشايقية في الحرب والإغارة وعدم الخضوع السلطني[2]. وقد انحدر منهم الخليفة عبدالله وكبار رجالات المهدية من أبناء الغرب.

كانت هناك فئة ثالثة في العاصمة أم درمان وهم الأجانب والذين وفدوا إلى السودان في عهد الانفتاح وكان عدد كبير منهم مثل اليونانيون والأغاريق والنصارى والمصريين الذين جاء ذكرهم في الفصل الرابع والروس والألمان والايطاليون وقد امتلك بعض منهم أراضي زراعية وبساتين في الخرطوم وكان منهم أسرى مثل سلاطين باشا النمساوي وليبتون واهرولدر ونيوفيلد وقد عملوا كإداريين موظفين وصيارفة ومحاسبين في دواوين الحكومة والوظائف الفنية وأطباء في المستشفيات. وقد استفاد منهم السودانيون كثيراً[3] شكل هذا الخليط والقبائل الموجودة في السودان بالإضافة إلى المصريين والهنود وبعض العرب من مكة وسوريا والترك والأثيوبيين مجتمع أم درمان الأول[4].

ولعل أكثر هذه الأجناس استمرارية في سكن أم درمان حتى الآن هم الهنود والمصريين والمسالمة بالإضافة إلى القبائل السودانية.

فنجد أن الملامح الديمغرافية لعاصمة المهدي قد كانت عبارة عن تجمعات سكانية حسب القبيلة والتدين. فكل قبيلة أو مجموعة دينية كانت تعيش كمجتمع مغلق على نفسهم وبمرور الزمن فقد زالت الفوارق الاجتماعية وتم التمازج بين قبائل السودان المختلفة مكونة السكان الحاليين لمدينة أم درمان[5].

ذلك التمازج الذي دعى إليه المهدي من خلال النظام المركزي الذي أسسه في السودان لكي يصبح المجتمع السوداني يمثل أسرة دينية كبيرة مشحونة بالمشاعر الأخوية الإسلامية حتى تصبح الأمة السودانية أمة واحدة[6].

مجتمع أم درمان في عهد المهدية بعد تكوينه:

عندما قامت الثورة المهدية، جعلت لنفسها اطاراً محدداً ميز ملامحها. وقد أحدث ذلك تغيراً شاملاً في المجتمع السوداني. وبحكم أن أم درمان هي البقعة التي اختارها الامام المهدي، والخليفة عبدالله التعايشي من بعده لتكون مستقراً للحكم. فإن تعاليم وتشريعات الإمام المهدي قد شملتها. بل كانت معظم التشريعات والمناشير قد صدرت منها. ومما ساعد على تقبل تعاليم المهدي وتشريعاته والتفاعل معها. وجود أعداد كبيرة في أم درمان من أعوان وأتباع المهدي ومريديه، ولكن على الرغم من الاستجابة التي وجدتها الدعوة المهدية. كانت هناك بعض الهنات والمقاومة. ولقد تعرضت الثورة المهدية لانتقادات لاذعة[7] وهجوم وصل لحد العداء من قبل قبائل هي مسلمة في المقام الأول وذلك بسبب ما أحدثته المهدية من تغيير

---

(١) دكتور حسن عمر السنوسي : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب بالسودان والقاهرة ١٩٦٥، ص٤٠.

(٢) عوض عبدالهادي العطا "د" تاريخ كردفان السياسي في المهدية ١٨٨١- ١٨٨٩، ص ١٢.

(٣) محفظة رقم ١٠٢، ملف٤ "السودان" دار الوثائق القومية القاهرة.

(٤) محمد إبراهيم أبو سليم، الحركة الفكرية في المهدية، المصدر السابق، ١٢٧.

(٥) أبو سليم، نفس المصدر، تاريخ الخرطوم.

(٦) منشورات المهدية، جمع وتحقيق أبو سليم، منشور رقم ٢٦، ص ١٨.

(7) Sayyid. Hurrci3,usc of folklor in political and social pratcstly the shukriyya "Dairection in sudnaces lingestics, and folklor, cdlysayyid H. Hurrei 3 and Herman Bell Khartoum University press.

شامل في الوضع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي وقد تمثل ذلك في الدعوة بأبطال الكثير من العادات والتقاليد باعتبارها بدعاً ويقول عبدالله علي إبراهيم " وحملت تعاليم وأحكام المهدية التطهيرية الخالصة الزهد تهذيباً مباشراً للبنيات الاجتماعية والأخلاقية. لا ارستقراطية النوارب المبنية على الثروة، وما يترتب عليها من امتيازات ومراتب وقواعد معربة في السلوك والأخلاق".

فقد كانت الثورة المهدية فرصة لانضمام أعداد كبيرة من القبائل في ركبها والتي كانت ترزح تحت سيطرة القبائل الكبيرة لأن المهدية في تعاليمها قد ساوت بين الجميع وأدى هذا الوضع بلا شك القبائل الكبيرة للوقوف وشل حركتها وكان لا بد من أن تقاوم هذا الوضع وتدخل في صراع مع الثورة المهدية. كما أن العلماء ورجال الدين في صراعهم مع المهدية لم يكن صراعاً في كثير من الأحيان بسبب الخلافات الدينية بقدر ما هو صراع يهدد سلطة العلماء وسياداتهم داخل الدولة أما المواقف ووجهات النظر المغايرة لآراءه ومعتقداته قد عالجها الإمام المهدي بكثير من الحنكة والسياسة وبما أن الثورة المهدية قد قامت لنصر الدين الإسلامي وإرساء قواعد العدل في مجتمع عمت فيه الفوضى والفساد فإن الإمام المهدي قد أتبع نهج النبي ﷺ في إدارة الحكم وسياسة الدولة ومعاملة الرعية. فكانت مناشير المهدي عبارة عن نشرات وخطابات توزع في المناسبات التي يقتضي فيها الأمر ذلك[1] ولما كان المجتمع في أم درمان قد تكون من ذلك الخليط الذي ذكرناه فقد كان مقاوماً لتلك المناشير والخطاب وكان يقوم بكل عاداته وتقاليده رقم ذلك كما سنرى في الصفحات القادمة.

ويذكر سلاطين باشا بأن الناس قد تظاهروا بمجاراة المهدية ونظمها الدينية الجديدة التي بثتها في صفوف الشعب بينما هم في الوقع متمسكون بتعاليم الدين الأصلية وفي هذا الاختلاف بين ما يعتقده المرء وبين ما يدعي أمام الخليفة لاحترامه أو خوفاً منه.

نتيجة لهذا ساد فساد عظيم وكان أغلب الناس غير مرتاحين إلى الحالة العامة في أم درمان بل في السودان عامة. لأنه أشفقوا على حرياتهم الشخصية من تعسف رجال الخليفة عبدالله ففضلوا حينذاك الإنصراف إلى أهواءهم وملذاتهم والاسراف في الشرب بقدر ما تسمح لهم أجسامهم والانحراف في بحر الشهوات[2]

وقد لا نتفق مع سلاطين باشا في هذا الرأي في وصفه المجتمع بالفساد وانصراف السودانيون بأنهم ساروا في طريق اللذة والمفسدة وذلك لأن الخليفة قد أمر بتخفيض مصاريف الزواج فكان ذلك تشجعياً حيث صار صداق البنت عشرة ريالات وأصبح صداق الأرملة خمسة ريالات ومعه لباس عادي وحذاء وبعض الروائح العطرية. أما قوله قد كثرت حالات الطلاق في المجتمع[3] فلربما يكون قوله بدافع التشفي من الخليفة أما بالنسبة للمحظيات فقد كنا بأعداد مما أدى لانتشار الفساد الخلقي وجلب الأمراض الخبيثة ولانتقالهن من بيت آخر مما أدى لجلب الأمراض الخبيثة وانتشارها في المجتمع

---

(١) محمد إبراهيم أبو سليم، محقق، منشورات المهدية ١٩٦٩.

(٢) سلاطين باشا، المصدر السابق، ص ٣٢١.

(٣) نفلسه، ص ٣٢٢.

وخاصة في دوائر الضباط والجنود وتبادلهن كسلعة[1] اوربما نجد قليل من الصحه في قول سلاطين إذا أخذنا أنه كان يريد إثارة الرأي العام ضد الخليفة أمام عنصر الأجانب والذي تحدثنا عنه فيما سبق كعنصر مكون لمجتمع أم درمان الأول في عهد المهدي والخليفة عبدالله[2]. فقد كان من الطبيعي أن يكون له دوراً في ذلك المجتمع ومن البديهي أن يكون انتماءهم لأوطانهم وهذا أضر بالمجتمع السوداني لاتباعهم حياة لم يألفها السودانيين حيث تعددت بينهم حالات الطلاق وشاع زواج المتعة والزواج المختلط وإهمال الأولاد والذهاب إلى كل وسيلة مشروعة وغير مشروعة فأحلق هذا عدة مشاكل اجتماعية ولذلك كثرة الجواري وخاصة في الخرطوم مما أدى إلى السمعة السيئة[3] وقد اطلعت على بعض الوثائق التي توضح بأنه قد كان هناك اصلاحاً رقم تلك المفاسد التي تحدث عنها سلاطين باشا وأن عدد كبير من الناس قد التزم بتعاليم المهدية الداعية إلى التغشف[4] وقد اختفت من المجتمع ظاهرة الفخامة في الملبس والسكن والركوب والزينة وتقاليد الرجال بالذي الموحد الذي حددته الثورة المهدية الذي كان يتكون من جبة وسروال وعمة وطاقية وحذاء " نعال خفيفة" وسبحة[5].

وقد ذكر المهدي لأصحابه قبل موته بأنه راى في حضرة نبوية. وأن النبي ﷺ قد أخبره أن حب المهدية ما هو نظافة الجلد والثياب والصابون وسماحة العمم لكن في الإلمام بالمهدية وتطبيق تعاليمها[6]. أما الغاويات من النساء الرقيق من بائعات الخمور (والمريسة هي نوع من انواع الخمور البلدية) والمتعة الجسدية واللاتي يسكن في أماكن وسط منازل الأمراء وبين بيوت الله بتصريح من الحكومة التركية السابقة التي كانت ترى أن الدنيا حرية[7] هؤلاء العاهرات من رقيق فالنساء ما أن سمعن بقرارات المهدية المحرمة للرذيلة والرامية لقفل أماكن صناعة وبيع الخمور[8].

حتى أسرعن إلى الانزواء والاختفاء في منازلهم حتى لا يتعرضن للعقوبة الصارمة التي فرضتها تعاليم المهدية. وصمتت أصوات دفوفهن " دلاليك" التي كانت تزعج المصلين في المساجد، وبذا نظف المجتمع من هذه الرذائل التي كانت تمارس علناً في العهد التركي[9] كما أخرجت المهدية الناس في السودان من دائرة الولاء والتقدس لرجال الطرق الصوفية والمشايخ وخاصة إذا علمنا أن الخليفة عبدالله قد جمع العلماء بأم درمان بالقرب منه خوفاً منه بالافتاء بما لا يريد[10].

---

(١) نفسه، ص ٣٢٣.

(٢) ضرار صالح ضرار "د" تاريخ السودجان الحديث، ٦٨ نفس المصدر.

(٣) سلاطين باشا، المصدر السابق، ص١٣٧.

(٤) كتاب منشورات المهدية، جمع وتحقيق دكتور محمد إبراهيم أبو سليم.

(٥) منشورات المهدية، الأحكام والآداب، الجزء الثالث، ص . دار الوثائق القومية بالخرطوم.

(٦) مجموعة وثائق النجومي دفتر مخطوطه توشكي، ص١٣٩، دار الوثائق القومية بالخرطوم.

(٧) أحمد الجابري، في شأن الله وتاريخ السودان، كما يريه أهل القاهرة ١٩٤٨، ٦٨.

(٨) مهدية ٤١٨ م٠ج - ٤ " دفتر الحدود والأحكام، ص ٧، دار الوثائق القومية.

(٩) مهدي ٦/١ المجلد الثالث، ص ٧٠ دار الوثائق المركزية القومية بالخرطوم.

(١٠) محمد بن ضيف الله، كتاب الطبقات مصدر سابق، ص ٨- ٩.

كما أن تعاليم المهدية منعت الأنصار من التنابز بالألفاظ الفواحش حتى يتطهر المجتمع من تلك الألفاظ البذيئة التي انتشرت وسط المجتمع السوداني من قبل مثل " يا خنزير يا يهودي، يا معرص ويا لوطي، يا كافر" وغيرها. وكان الخليفة عبدالله يمنع أهله التعايشة من الاعتداء على ممتلكات الناس[١].

ومن العقوبات التي ما زال يشدد عليها الخليفة عبدالله بعد المهدي شرب الخمر، الدخان، الحشيش وكذلك تعاطي التمباك " الصعود" وتحديد عقوبة الجلد للمخالفين[٢].

أما بخصوص الشباب فقد أصدرت المهدية أوامرها بقبض المتسكعين والمتبطلين من الشباب وأخذهم للجندية والمساهم بعد حلق شعورهم[٣] ولعل ما نراه وما نسميه من دفاع شعبي أو خدمة إلزامية صورة حية لما كان قد قامت به المهدية لإصلاح حال الشباب في ذلك العهد وذلك لحوجة البلاد لهم.

ولما كانت المهدية قد قامت بنصرة الدين الإسلامي وإرساء قواعد العدل والمساواة في مجتمع عمت فيه الفوضى والفساد. فإن المهدي قد اتبع نهج النبي ﷺ في إدارة الحكم والسياسة التي تقوم عليها الدولة وأوصى أن تطبيق تلك المناشير والخطابات التي كانت توزع في المناسبات والتي كان يقتضي فيها الأمر ذلك وكان أول ما طبق في مجتمع أم درمان خاصة والسودان عامة هو عدم التشبه بالترك والكفرة اتركوه كام قال تعغالى في الحديث القدسي " قل لعبادي المتوجهين إليّ لا يدخلون مداخل الأعداء ولا يلبسون ملابس أعدائي فيكونوا هم أعدائي " فمن اللباس الطرنيطه والبوري وكل الذي من علامات لبسهم فتركوه وتخلقوا باخلاق الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين[٤]. وتقصد بالطرنيطة التي وردت في المنشور: هي البرنيطة وهي لباس الرأس عند الافرنج. فلذا نجد أن أتباعه كانوا يلبسون الجبة المرقعة وأن معظم سكان أم درمان قد لبس الجبة المرقعة وكانت زياً للجنود عامة[٥] كما منع المهدي من استعمال المعازيف والدلاليك والنحاس والنقاقير والبوري والطرنيطه ضمن مجموعة الآلات الموسيقية يعتبر لبس في المعنى لتشابه الكلام، وخاصة أن الفقرة من المنشور التي ورد فيها تلك المسميات تتحدث عن اللبس، وقد شدد الخليفة عبدالله أيضاً على ذلك بمنع وتحريم الغناء وضرب الدفوف. في الوقت الذي أجاز فيه الخليفة المديح والشعر الهادف والداعي للفضيلة والمهدي[٦].

والدليل على وجود تلك الممارسات التي نهى الإمام ومن بعده خليفته. هناك بعض النماذج مما خلفه التراث الشعبي والتي كانت تمارس في الجلسات الخاصة.

---

(١) مهدي أ/٢٥٤/مجموعة وثائق الصادق " مخطوط الجزء الثاني ص٨،دار الوثائق القومية بالخرطوم.

(٢) الفيوضات الوهبية للمسلمي " مخطوط" مصدر سابق، ص١٠٤، دار الوثائق القومية الخرطوم.

(٣) نفسه، ص ٩٤.

(٤) محمد إبراهيم أبو سليم، منشورات المهدية، مصدر سابق، ص١٦٦.

(٥) القدال " د"، الإمام المهدي، لوحة ثائرسوداني، مصدر سابق، ١٩٢.

(٦) الإمام بدر أي محمد محمود بن أحمد عمر الفري، شرح صحيح البخاري، الجزء السادس، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى الياس الحلبي وأولاده، بمصر، ١٩٧٢، ص ٤٤١.

وفي لقاء مع الرواية آمنة محمد عبدالرحمن من مواليد أم درمان ١٩٠٠ بمنزلها بالعباسية أم درمان ورثت بعضاً من تلك الأغاني عن خالتها الحاجة آمنة بنت الحاج عبدو التي زامنت فترة المهدية وعاشت في أم درمان وقد أكدت الرواية أن هذه الأغاني تمارس في جلسات خاصة وبصاحبها رقص الفتيات. ولقد تم اللقاء في يوم ١٩٣٠/٥/١٥م بحضور آسيا محمد الصادق وبتول محمد محمود من مواليد أم درمان.

ومطلع الأغنيات يقول:

أنا يام خديد والله

حسى الطابور في بطن الصور جر

أسيادي ديل بينتر

ولبسو الدروع وفوق النحاس هــزو

شوف الملازمين راياتم في الشفا غــزو

والمنكرين من شيخ الدين فــزو

أنا يام خديد والله

حسى الطابور في بطن الصور جر.[1]

ومن خلال هذه الأبيات نتبين مدى تشبع الأغنية بروح المهدية، متمثلاً ذلك في تمجيد انتصاراتها. وقد ورد اسم شيخ الدين "وهو ابن الخليفة عبدالله التعايشي الذي عرفته المنكرين (أي منكري المهدية) وذلك بقتاله لهم.

وننتقل إلى صورة غنائية أخرى تصف زينة المرأة وتختلف عن سابقتها وصور أخرى تتضمن هذه الأبيات الغنائية وهي تقول:

دودا السحاب وربطوالغنيم ورصوا الصدف فصلوا النجيم

وخرط العرق يونس الدكيم

كما أوردت الرواية هجرة إبراهيم، نقلاً عن والدتها بتول القمير بعضاً من أغاني المهدية أيضاً والتي كان يغنيها المغني ود الفكي وهو مغني عاش في زمن المهدية وتضيف الرواية أن هذه الأغاني كانت تؤدي خارج المدينة أو بعيداً عن عيون الخليفة عبدالله التعايشي وقد تم تسجيل تلك الأغاني في مقابلة مع السيدة هجرة إبراهيم، من مواليد أم درمان ١٩١٥م بمنزلها بالعباسية أم درمان يوم السبت الموافق ١٩٨٥/٩/٢٨م وهذه الأبيات من بعض الأغاني التي كانت تؤدى.

يايابا لا تتعب بالكتاتيب. اليدين عنج خاتى التراقيص

ارملوي الحمبى سديره راقص هجعة بردة ليل في بيعه حاقص

---

(١) هذه الأبيات سمعت من إمرأة جدة عاصرت المهدية في أم درمان، وتوفيت في الستينات من هذا القرن.

اسما ما بدو لبالو ناقص اليدين عنج حاشا ما بيطرقن

السنون يا أخوي بالليل ببرقن بنت مسيمس جات يا غوش أمرقن

يتحدث البيت الأول عن أن لا يتعب الفكي بالكتابة. ولفظ يابا هذه تستعمل كثيراً في العامية السودانية للدلالة على لفظ الفكي أو الفقيه. ومرض الشاعر لا تداويه الكتابة أما البيت الثاني فيصف أيدي محبوبة الشاعر ويشبهها " بالعنج خاتى بالتراقيص" أي لين الأيدي ملساء لا توجد بها تجاعيد " تراقيص" ويجيء البيت الذي يلي سابقة وهو يصور المحبوبة في ساحة الرقص فيقول ارمولي الحمبى والحمبى هو نوع من أنواع الغناء ترقص على أنغامه الفتيات. وتستمر الأبيات في الغزل في المحبوبة والشاعر لا يريد محبوبته أن تقوم بعمل يدوي وهو طرق القطن وذلك لوجود من يقوم عنها بالمهمة، ولكنه استعار من العنج الطول والتساوي والنعومة . وفي خاتمة الأبيات يذكر الشاعر اسم المحبوبة وهي تدعى " بنت مسيمس" فيقول " بنت مسيمس جات يا غوش ارمقن" أي عندما تحضر المحبوبة فلا بد للفتيات أن يخرجن ويفسحن لها المجال. فإن حدوث تلك الممارسات بالرغم من التشدد في منعها، يقف شاهداً على غلبة التراث وقوته ليمثل ثقافة الجماعة وأعرافها وقيمها. وهذا يقودنا إلى ما ذكرناه سلفاً عن الصراعات والتحديات التي دخلت فيها المهدية عموماً [1].

المآتـــم:

ومن العادات التي قام المهدي بإبطالها عادة البكاء والنواح على الميت وقد ذهب المهدي بعيداً من ذلك بأن فرض مصادرة نصف أموال الميت أو من قام بالفراش[2] عليه وإيداعها لبيت المال ذلك لأن المآتم كانت تشكل بدعاً كثيرة في ذلك الزمان لما يفعله الناس فيها من أعمال لا تمت للإسلام بصلة فكان أهل المريض يلازمونه في مرضه حتى يموت وعند موته تحدث ضجة وجلبة ويتجمع أهل الميت حوله بعد أن يبعدوا النساء عنه ويضعونه على العنقريب(هوعن سرير يصنع من الخشب تنسج علية حبال للنوم والجلوس علية بون وضع مرتبه) ثم يرفعون أصواتهم بالبكاء ويدعون بدعاء الجاهلية ومن النساء من يحثن التراث على رؤوسهن ويلطخن وجوههن بالسجم والشحم بينما يذهب الرجال لحفر المقبرة تقوم النساء بعمل ما تحنط به الميت. بعدها يخرجون بالميت للحوش تقام المناحة وهي ضرب النحاس ويأخذون قرعة يابسة توضع في طشت به ماء وبجانبه طشت آخر ويضرب الطشتين ضرباً محزناً ويسرعون في ندب الميت وتعزيز مناقبة ويصحن صيحة مزعجة تفتت الأكباد تسمى "السكلى" . ومن الأقوال المستعملة في الحلبة الراقصة التي ترقص فيها النساء وتبدي محاسنها وزينتها مثلاً تلك الألفاظ أو الجمل المختلفة يا جمل الشيل يا مقنع الكاشفات وا مصيبتاه يا حليلك يا هوى يا شديد الحيل[3]. ويقيمون الولائم لمدة أربعين يوماً وتذبح الذبائح وتأتي الوفود وقد اشتهرت قبائل الجموعية وساكني الفتيحاب القديمة بذلك خاصة في منطقة " القلعة صالح جبريل" وينام الناس وأهل المتوفى على الأرض ولا يغسلون ثيابهم التي علق بها الرماد والسجم

---

(١) نفس المصدر السباق.

(٢) محمد إبراهيم أبو سليم "د" منشورات المهدية، ص ١٨٦.

(٣) نعوم شقير، تاريخ السودان، مصدر سابق، ص٢٧٩.

والتراث ويستمر حدادهم لمدة سنة كاملة. تقص زوجة الميت وأخواته شعورهن ويلبسن الدمور وتمشي بدون حذاء وتغسل الثياب "بالقرض" والعطرون ولا يأكل أهل الميت من الطعام ما فيه طعم السكر ويستمر حدادهم لمدة سنة وفي بعض المناطق أعوام متتالية لا تقام الأفراح ولا يشاركون أحد في فرحه[1]. أما الرجال فإنهم يركبون دوابهم مقلوبة الفراء وقبيلة الشايقية يرتدون طرابيشهم بلا أزرار إشارة للحداد. فلذا انتهجت تعاليم المهدي وأمر الخليفة عبدالله أن تضرب النائحات بالسياط وإذا لم ينهها ولي الأمر ومن أقام تلك الولائم تصادر أمواله كلها[2].

قد كان ذلك من إصلاح شأن المجتمع الذي كان يضج بعدد كبير من القبائل المختلفة في أم درمان.

أيضاً من ضمن الأعمال التي قامت المهدي بتحريمها وكانت سائدة في ذلك المجتمع أعمال الدجل والشعوذة وقد رأينا بأنها كانت تدخل من ضمن ثقافتهم وغنائهم كما قام المهدي حدود الشرع في المحرمات، كالزنا والخمر[3] ولقد صادقت تلك التوجيهات هوى في النفوس بخاصة النساء تغنين بها:

مهدينا جاب مكتوبو وقال لينا صلو وتوبو

دا الحرام اتركو دربو

دا الحرام المريسة وكسر الكنيسة

وقتل ترك الكوة وخلى المدير يتحوى[4]

هذه الأبيات تصف لنا ما صاغه الحس الشعبي فيها. وتعكس مدى تعلق الاتباع بأوامر المهدى وتوجيهاته. وقد مجددت تلك المدائح انتصارات الثورة المهدية على الحكومة التركية . كما عكست مدى تأثير المنشورات كوسيلة إعلامية ناجحة وسط الجماهير كما أكدت مواكبة المرأة للحركة الثورية المهدوية وتشبعها بمبادئها وتجاوبها مع المهدية تمثلت في الدعوة التي وجهتها الشاعرة بنت المكاوي للإمام المهدي في بداية النضال وحبه للثورة ضد الفساد والمفسدين

فقد أنشدت الشاعرة تقول:

طبل العز ضرب هونية في البرزة

وغير طبل امبكان، أنا ما بشوف عزة

أنا طال الوبر واسية بالجزة

وان ما عم نيل ما فرخت وزه[5].

---

(١) نعوم شقير، جغرافية السودان، المصدر نفسه، ص ٢٨٠.

(٢) حمدنا الله مصطفى حسن" د"، التطور الاجتماعي الاقتصادي في السودان، ١٨٤١- ١٨٨١، ص ٤١ ، بدون تاريخ.

(٣) محمد إبراهيم أبو سليم "د"، منشورات المهدية، مصدر سابق، ص ١٨٦.

(٤) هذه الأبيات سمعت من إمرأة جدة عاصرت المهدية في أم درمان، وتوفيت في الستينات من هذا القرن.

(٥) هذه الأبيات سمعت من إمرأة جدة عاصرت المهدية في أم درمان، وتوفيت في الستينات من هذا القرن مصدر سابق.

المشاكل التي نجمعت عن عدم الانصهار القومي في الحالة العامة:

وقد شكل هذا التنوع العرقي والثقافي نسيج المجتمع ومقومات الشخصية السودانية لمنع المهدية التمايز العرقي ومحاربة التفرقة العنصرية رغم ظهور الصراعات بين الخليفة عبدالله والأشراف وغيرها من المشاكل التي أوجدت الشقاق بين السكان[1].

فنجد بالرغم من احتكار الخليفة للمناصب العليا والقيادة العسكرية في أهله إلا أنه لم يستطيع الاستغناء عن أولاد البلد بل كان يستخدمهم في الوظائف التي كانت تحتاج لمهارة ومعرفة القراءة والكتابة ومثل أمانة بيت المال والقضاء. كما كان يلجأ إليهم في الأعمال الخاصة كالجاسوسية كمستشارين فملاً لتفتيش منزل فيه مريسة أو خمر أو تبغ" فكانوا يقومون بذلك خير قيام[2]. ويروي بابكر بدري أن ثورة عبدالله ود سعد قد جرت وبالاً علينا نحن الجلابة. وكانت كابوساً من الخوف والحزن إنساناً أنفسنا على أننا مؤسسو دولة المهدية فجاروا علينا وخضعنا لهم في مدينة أم درمان. ويحكي بعض القصص الطريفة بهذا الشأن نوضح اعتداءات البقارة عليهم في إحداها "يقول قصدنا السوق أنا والمنصور أبو كوع راكبان حمارينا وفرخانا يجريان ورانا وكل منا يربط ربط بزركاشة في سرج حماره يضرب ظهره فلقينا في مقابر الشهداء الشمالية عبدالله نافع السنوسي أخ الخليفة ومعه اثنان ركبان وواحد راجل من السود فلما التقينا نهرني أن أنزل فنزلت فأركبوا الراجل الأسود حماري ومضوا في طريقهم فجلست وتبعهم المنصور بحماره وفرخه فإذا لا المنصور ولا الحمار وفرخه معه فقال لي سألوني عنك قلت هو في انتظار حماره فقال عبدالله اذهب إليه واتني به الجلابى "ود الكلب" ما نمنعه أن يجري ورانا حتى تصل وتسلمه حماره فمضيت إلى المنصور راكباً خلفه إلى طريق فور حيث وجدتهم في ظل حوش عبداللطيف التاجر النوراني أخذوا مني عمامتي وكرابتي وسيفي وأجلسوني في الشمس وكان النهار حار جداً. والتفت علي عبدالله وقال لي ألا تجري وراء العبيد فقلت أنت يا سيدي ما قلت لي أجري ولو قلت لفعلت قال أعطوه عمته وكرابته وحماره فركبنا معهم على طريق السوق بحكم الرهبة فإذا الطريق يمر بباب منزلي فقلت له يا سيدي هذا منزلي ألا تشرفنا بشرب الشاي عندنا وكان غرضي التعرف به فقال " دى دى نشرب" وعملنا لهم الشاي وقراصة سمن وسكر وشرب الشاي فرأى البراد جميلاً فقال لأحد من معه أدخل البراد في مخلايتك ولم يطلبه مني كأنما اشتراه مني ودفع لي الثمن ولم أظهر أي حركة ولا عجب بل شكرته بأن شرفني بأخذه[3].

هذا يوضح لنا مدى العداء الذي وصل إليه السكان تجاه بعضهم البعض إلى حد أصبحت نظرة أولاد الغرب لأولاد النيل تنم عن الكراهية العميقة التي كان يكنها هؤلاء الذين كانوا يرون بأنهم هم أصحاب النفوذ وأقارب السلطان أو

---

(١) منشورات المهدي، تحقيق محمد إبراهيم أبو سليم، في منشور رقم ٢٦، ص١٨.

(٢) ب م هولت "د" تاريخ السودان الحديث في العصر الحديث (٦٣- ١٩٦٤م)❖، ص ٣٢٣.

(٣) الشيخ بابكر بدري، تاريخ حياتي الجزء الأول ١٢٧٩هـ/١٣١٦هـ، الطبعة الأولى ١٩٥٩م، أم درمان، ص ١٢٦- ١٢٩. والشيخ بابكر بدري عاش في فترة المهدية فكان يعمل جامعاً للضرائب ثم تاجراً واشترك في حملة ود النجومي إلى مصر، أسر ثم أخرج بعد عودته للسودان ساهم في نشر التعليم إبان العهد الثنائي إذ بنى مدارس الأحفاد وكتب تاريخ حياته في جزئين وهي عبارة عن مذكرات شخصية.

الخليفة وقد أساءوا بفعلهم هذا إلى المهدية ومبادئها التي نادت بها منذ البداية حتى أنها جعلت الناس تنظر إلى ذلك العهد بأنه عهد مظلم ليس فثيه بصيص من النور أو الأمل. وقد كان ذلك الإحساس ما يصرح به معظم الناس كما قال محمد بك[1] ارقو عندما زارد الخرطوم يوماً قال: " إن لم يكن للخليفة من عمل صالح ألا أنه حفظنا القرآن بعد الشيب يكفي".

ويروية بابكر بدري حادثة أخرى عن عدم الانصهار في أم درمان وتربص كل من العنصريين من أولاد البلد بأولاد الغرب" ويقول جاء لزيارة موسى يعقوب اخبر هناك أن العامل مختار محمد مريض بالحمى فجاء مع موسى يعقوب لزيارته ووجد عنده ملازمين الأمير العظيم أحمد فضيل آدم جديد الحريري وآخرون وكانوا يشربون الشاي ويتحدثون بينما سمعوا صوت الوابور الآتي بنساء المتممة المقتول أو المأسور وولاة أمورهن إذ نهض داؤد قائماً وضرب جبته على وركة بيده نشطاً وقال " بلفظة " كب أمشي لخليفة المهدي يديني جعليه أسويها سرية فما أتم كلامه إلا نهض مختار المريض رمى ثوبه الذي كان مؤتذراً به وقام بسرواله فقط وصفعه داؤد صفعة كادت تلقيه في الأرض وضرب السموار برحله وقال كمان تشرب شاي في بيتي تشرب السم قال داؤد يامختار تضربني اقتلك وهل خليفة المهدي يعمل الجعليات سراري وهل يقدر يعملهن إذا أم درمان ما تقيد ناراً. وخرج داؤد مغضباً وخرج بعده موسى يعقوب فزعاً وسار الصمت ورجع مختار متدثراً بثيابه وصار يبكي فصرنا نهدي من روعه وقلنا له أن مثل هذا الرجل يريد أن يؤجج الفتنة بيننا وبين أولاد الغرب. فانصرفت لكي أخرج بعض النسوة من هذه الوابور القادمة [2].

هذه الحادثة العجيبة كما يسميها بابكر بدري قد تصور لنا عدم الانصهار القومي لما يحدث في أم درمان بين العنصرين المذكورين آنفاً وتوضح مدى الحقد الدفين الذي كان يحمله أبناء الغرب لأبناء النيل حتى بعد أن أصبحوا في مجتمع واحد بالرغم من تلك التعاليم المهدية السمحة.

فلقد تركزت تعاليم المهدية والتي طبعها الخليفة عبدالله بعد المهدي على الجوانب الدينية والقيم الروحية التي تتصل بكرامة الإنسان المسلم وتحفظ العالم الإسلامي من التدهور والانحلال. ولقد كانت تلك المبادىء والأهداف التي قامت من أجلها الدعوة وهي تربية الناس تربية دينية صحيحة حتى لا ينشغلوا بنعم وخيرات الدنيا الفانية بل الانصراف عن المسائل الدنيوية التي تصرف القلب عن العبادة والجهاد في سبيل الله[3].

وتروي بعض المصادر أنه على الرغم من أن التربية الدينية تلك وأهميتها على المجتمع في المهدية إلا أنها لم تقضي على المواقف والمشاكل الاجتماعية المتعددة في مجتمع أم درمان خاصة والمجتمع السوداني عامة[4].

---

(١) المؤرخ محمد عبدالرحيم، نفتاث البراع الجزء الثاني، ص ٩٤.

(٢) بابكر بدري، المصدر السابق، ص ١٦٥.

(٣) الفيوضات الوهبية "مخطوط للمسلمي"، مصدر سابق الجزء الأول، ص ١٤١.

(٤) دفتر صادر رقم ١ ص ٦٧ "رسالة محمد المهدي إلى السنوسي" بتاريخ ٢٣ رجب.

وأحسب ظني بأن القائمين بالأمر في الدولة بعد وفاة المهدي لم يقوموا بتطبيق تلك التعاليم كما جاء في عهد المهدي الأمر الذي أدى أن يرى بعض من كان يعاصر ذلك العهد، عهد الخليفة عبدالله بأنه يكثر فيه الفساد كما ذكر ذلك سلاطين باشا وغيره من الملازمين المعاصرين له.

ومن خلال ما وقفنا عليه من مصادر خلصنا بأن ذلك التطور الاقتصادي والاجتماعي الذي أشرنا إليه في الفصل الرابع قد أدى بالتالي ظهور نتيجة في نواحي عديدة في ذلك المجتمع من أهمها ظهور معالم الوحدة القومية في ذلك المجتمع المتعدد الأجناس واللهجات والعادات.

المرأة في المهدية:

لقد كرمت المهدية المرأة ونجد صورة مشرفة للمرأة منذ قيام المهدية في قدير إلى أن أسس المهدي أم درمان فقد أعطت المهدية المرأة الندية في القيمة الإنسانية للرجل واهتمت بها كعنصر له دوره الحيوي في المجتمع وذلك من خلال ما ورد في الأحكام المختلفة أولها بأن تلزم المرأة بيتها ولا تخرج منه إلا لغرض شرعي وبصحبة محرم[١] على أن تكرس المرأة جل وقتها لمنزلها ورعاية زوجها وأولادها وطاعة زوجها وإعانته على طريق الآخرة لتنال ثواب الله[٢] على أن ترضى بقليل العيش إذا كان زوجها غير قادر على توفير الكثير لها[٣] كما دعت المهدية تقليل الصداق وأن تكون محشمة وغير متبرجة للرجال في الأسواق أو في مكان العمل والاجتماعات والحفلات العامة وأن لا تتزين إلا لزوجها وأن تبدي زينتها إلا لمحارمها[٤].

وإذا لاحظنا أن هذه الصفات هي صفات المرأة المسلمة التي أثنى عليها الرسول ﷺ حين قال لابنته فاطمة: ما أحسن أن تكون عليه المرأة؟ قالت " لا يراها رجل ولا ترى رجل فعجبه عليه الصلاة والسلام هذا الجواب. فقال ذرية بعضها من بعض"[٥].

حتى الإماء والنساء البدويات واللائي كن يمثلن مشكلة اجتماعية كبرى في الدولة المهدية وذلك لعجز المهدية عن إقناعهن وإرشادهن ووعظهن بترك التقاليد والأعراف البالية والمخالفة للشريعة الإسلامية واضطرت المهدية في نهاية الأمر لاستعمال الشدة والصرامة لحمايتها من الوقوع في الرذيلة[٦].ومما لا ريب فيه أن المهدية قد سعت إلى حماية الأخلاق وهدم الرذيلة في كل طبقات المجتمع.

حرب العادات:

حارب المهدي كل العادات الضارة التي تقلل من شأن المرأة وتفيدنا بعض المصادر التاريخية بأن المهدي قد حرص على أن تنال المرأة المسلمة كل حقوقها التي كفلها لها الإسلام. فلقد كانت الإماء كما وصفها المهدي بعدم العفة. ولعل هذا يقودنا إلى معرفة ما عليها الأمة اوالجارية في المجتمع السوداني وآن ذلك مثل الحمل سفاحاً والزنى لأن المجتمع كان لا

---

(١) الصادق المهدي أبدوجيه المهدية، دراسات في تاريخ المهدية، جـ١ ص٧٧.

(٢) بشير كوكو حميدة، المصدر السابق، ص ٤١٨.

(٣) دفتر الأحكام ، ٨ رجب ١٣٠٠هـ، مايو ١٨٨٣م، دار الوثائق المركزية الخرطوم.

(٤) مهدية قسم ثاني ٢/ج/ دار الوثائق القومية الخرطوم.

(٥) عبدالوهاب عثمان، محمد ، الزهراء بنت محمد ﷺ، ص ٩٢.

(6) Holt: The Mahadist state in the Sudan p.115.

يعاقبها إذا فعلت ذلك بل يأمرها بأن تكشف رأسها تأدباً واحتراماً لسيدها ولرجال الدين دون اعتبار لحرمة ذلك ويسمح لها بالاختلاط بالرجال في الأسواق والمزارع والمرعي والرقص والغناء في الحفلات العامة وتبادل الرجل التحية عندما تلتقي به وكان بعضهن يصنع الخمور والمريسة الدكاكي (هو نوع من انواع الخمور البلدية) يتجمع الرجال عندهن في الأنادي "جمع إندايه" (مكان لشرب الخمور وممارسة الفاحشة)بل ظللن يعشن في جهل وسفور دون رادع من رجال الدين أو المجتمع حتى ظهور المهدية[١].

فمنعت المهدية ذلك وامتدت العقوبة لتشمل السيد الذي قد يسمح لها بذلك والخروج من المنزل[٢] كما منعت المهدية مصافحة الرجال للنساء ومن خالف ذلك بجلد مائة جلدة كما منعت النساء التحدث مع الرجال الأجانب، وانفراد الشباب بالشابات والخروج معهم للنزهة على شاطىء النيل أو الساحة أو الميادين العامة أو أن تصحبه إلى الفضاء[٣]. ولا أدل على ما قامت به المهدية من محاربة الفساد والأخلاقي وسط النساء ومن خلو الأسواق من الشابات الغاديات والرائحات بصحبة الشباب من الرجال. كما خلت المزارع والمراعي من الجواري والخدم ولأول مرة تخالف الزانيات صاحبات بيوت الدعارة وبيع الخمور وينزلن الرايات البيضاء من على أسطح منازلهن نهائياً تلك الرايات البيضاء التي ظلت ترفرف على أسطح المنازل لسنوات طويلة مشيرة إلى وجود "المريسة" لهذا أو ذاك المنزل. وأصبح المرء لا يشاهد في الطرقات أو الأسواق تلك المجموعات الكبيرة المتزاحمة من النساء إلا بنت صغيرة لا تشهي أو إمرأة مسنة إنقطع عنها أدب الرجال[٤].

الحجاب :

أما اللائي سمحت لهن بالخروج على أن يلبسن المحتشم الذي يتكون من إزار "قرباب" تلفه المرأة حول الجزء الأسفل من جسدها يتدلى حتى قدمها ثم الثوب أو "الفردة" التي تلقي بها الجزء الأعلى من جسمها وتغطي به رأسها.

وكان يعاب على المرأة المتزوجة أن تقف أمام الباب بالجلباب أو الفستان ولو لحظة حتى لو كان الجلباب ساتراً[٥]. وتضرب ٢٧ سوطاً من تكلمت بصوت عالي ومن صافح امرأة يضرب مائة جلده وهي كذلك مائة جلدة للسلام بالكتف.

المرأة والذهب :

فقد أصدرت المهدية فتوى جاءت فيها "الذهب لا يحرم لباسه" أما العاج فهو فطيس والفيطس لا يجوز لبسها. والدلكة لأجل راحة البدن واستعمال البدن في طاعة الله تجوز.. والدخان[٦] الخفيف يجوز أما إذا تكاثر على الجسد وأصبح حائلاً دون وصول ماء الغسل والوضوء للبشرة فإنه لا يجوز"[١].

---

(١) مهدية ٦/١ المجلد الثاني، ص ٧٠، دار الوثائق القومية الخرطوم.

(٢) نفس المصدر السابق، ونفس الصفحة.

(٣) منشورات المهدي، الجزء الثالث، "الأحكام والآداب"، ص ٢٢٥، دار الوثائق القومية بالخرطوم. تحت الرقم ١٥/٢/٨.

(٤) مجموعة أوامر المهدية، والخليفة عبدالله، ص ، دار الوثائق القومية بالخرطوم تحت الرقم مهدية، ٣٧/٥/٨.

(٥) دفتر صادر، رقم ٢، ص ١٤، دار الوثائق القومية بالخرطوم.

(٦) الدخان هو ما يشبه حمام البخار تستعمله المرأة بالطريقة التقليدية فيكون طبقة فوق الجلد وقد حرمه المهدي باعتبار أنه قد يمنع ماء الطهارة والوضوء عن الجسم.

ويرى علماء الإسلام أن لبس المرأة للذهب والفضة جائز شرعاً. والمحرم إنما هو لبس الذهب والحرير للرجال، لقول الرسول ﷺ : قد أمسك في إحدى يديه بقطعة ذهب وفي الأخرى بقطعة حرير " هذا حرام لذكور أمتي حل لإناثها"[٢].

ولم تكن أحكام المهدية شديدة على النساء فقط وإنما شملت الرجال الذين يغازلون النساء، فقد كلف المحتسب " مصلح السوق" في المهدية بمنع الرجال الوقوف أو الجلوس في طرقات النساء[٣] ونحن اليوم في حاجة ماسة إلى محتسب يعاقب كل من يقف بدون شاغل أو الجلوس على طرقات الأسواق ليغازل النساء أثناء سيرهن. لتأديب كل فتاة أو امرأة لا عمل لها إلا التبرج في الأسواق بالزينة للفت الأنظار إليها.

كما أجاز المهدي للمرأة التي غاب عنها زوجها مدة طويلة ولم يترك لها نفقة حتى ولو كان في منطقة الجهاد أن تطلق[٤] كما أفتى المهدي بعدم أحقية المرأة المطلقة قبل المهدية بمؤخر صداقها. وكذلك لا يحق للرجال أن يطالبوا بأموال المخلوعات[٥].

فلقد كرمت المهدية أمهات وزوجات الشهداء من المجاهدين فقدمت بعض الإعانات المالية وعملت على حمايتهن من أي اعتداء كما خصصت لأبناء الشهداء مخصصات معاشية.

إذن فقد كرمت المهدية المرأة كعضو عامل في المجتمع كأم وزوجة وشابة وحفظت لها مكانتها في كل المجالات.

وقد كلف المهدي إحدى النساء بحمل رسالة إلى غردون باشا فقد جاء في تحشية تلك الرسالة إن طلبت زيادة بعد وصول جوابي هذا فتخبرك به المرأة الواصلة إليك وقد قامت تلك المرأة الكبيرة السن" حبوبة النعمة "بتسليم تلك الرسالة لغردون[٦]. فهذا يدل على تكريم المرأة المهدية.

= =

(١) دفتر الحدود والأحكام، ص ٣٤- ٣٦، دار الوثائق القومية بالخرطوم تحت الرقم مهدية ٣٨/٥/٨.

(٢) دكتور الشوكاني (محمد بن علي الشوكاني)، نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار (القاهرة ١٢٩٧هـ)، جـ١، ص ٢٨٠.

(٣) نفس المصدر ، ص ٠٨) ٥ صفر ١٣٠٣هـ/٦ ديسمبر ١٨٨٣م) دار الوثائق القومية بالخرطوم. تحت رقم مهدية ٣٨/٥/٨.

(٤) دفتر الأحكام ص٢٥ لربيع الأول ١٣٠٣هـ/ديسمبر يناير ١٨٨٤م، دار الوثائق المركزية بالخرطوم، تحت الرقم مهدية ص ٢٨٠.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) مجموعة وثائق نجومي ص١١٥، دار الوثائق القومية الخرطوم. تحت رقم مهدية /٣٦/٥/٥٨.

تعليم المرأة :

أما التعليم بالنسبة للمرأة في المهدية فقد كان دينياً وكان نصيب المرأة من هذه المؤسسات التعليمية الدينية ضئيل جداً مقارنة مع رصيفها الرجل. إذ انحصرت مراكز تعليم المرأة في البيوتات الكبيرة وذلك بقيام حلقات العلم في تلك البيوت أو في أماكن ملحقة بالمساجد الخاصة بالنساء[١] وكل رجل يصطحب زوجته لحلقات العلم[٢]. فقد ذكر محمد إبراهيم[٣] أبو سليم أن الخليفة عبدالله التعايشي قد شيد مسجداً خاصاً بنساء المهدي. وقد كان في هذا المسجد مكان تلتقي فيه النساء العلم مع ممارسة العبادة. وفي المسجد الكبير بأم درمان خصص مكان ليدرس فيه العلم للنساء عامة، وهن غالباً كبيرات السن تقول أم جمعة ان إبراهيم ود الطيب محمد من مواليد الفاشر إن أمهاتهن في الفاشر كن يتلقين من غير كتابة أو قراءة وهؤلاء النسوة ينقلن ما يتلقينه إلى بناتهن في المنازل. وقد تكون هذه الطريقة التعليم التي تمارسة في أم درمان بالطريقة التي ذكرتها الراوية، لا سيما وأن الأعداد التي هاجرت إلى أم درمان من دارفور فإنها دون شك قد أتت بتقاليدها وأعرافها وممارساتها[٤]. أما الرواية خديجة من أم درمان فتذكر أن أختها الكبرى فاطمة قد ختمت القرآن وشرفت (٣) وقد تم ذلك في منزل والدها، الذي كانت تدرس على يديه جمهرة العلماء في ام درمان[٥].

وتورد بعض المصادر التاريخية أن المرأة السودانية ارتادت التعليم الديني في الخلاوي، حيث كان مجالس خاصة منفصلة عن مجالس الرجال وكان عدد التلميذات من النساء في بعض الخلاوي أكثر من عدد الرجال[٦].

وفي عهد المهدية قامت نساء المهدي بتدريس النساء القرآن الكريم والراتب وتعليمهم واجباتهم الدينية من غسل وطهارة وتدريبهم على أداء الصلوات كما شرحت لهن طرفاً من الحلام والحرام هذا، فضلاً على تزويدهم بكثير من الدروس الدينية المرتبطة بأخلاق المرأة المسلمة من عفة ونبل[٧].

وقد ذكر أحد المعاصرين لدولة المهدية أن أمه وأخواته كن يرتلن القرآن ويقرأن راتب المهدي يومياً بعد صلاة الصبح[٨]. وكانت تدرس على يديه جمهرة العلماء في أم درمان كما يذكر الراوي محمد الأمين الفيشاوي من بربر أنه قد سمع عن ثقاة أن في منطقة الرباطاب ما لا يقل عن أربعة وستين امرأة . ودرسن مختصر الخليل بن إسحق عن العلماء. وقد ذكر الشيخ بابكر بدري أن التعليم الديني للمرأة السودانية كما هو مؤرخ له يرجع إلى ثلاثمائة عشرين سنة ويستطرد

---

(١) أبو سليم، آثار، ج٣ ، ٣١٩، ص ٦٢.

(٢) نفسه ص.٦٢

(٣) محمد إبراهيم أبو سليم "د"، تاريخ السودان، دار الإرشاد الخرطوم ٩٦/١٩٧١.

(٤) الأرشيف شريط، رقم م د أ أ – ٢٧٦٧.

(٥) الأرشيف شريط، م م ر أ أ ، ٢٧٦٦. الشرافة هي عمل زخرفي بزخرف بها اللوح الذي يكتب عليه القرآن. وتكون الشرافة عادة عندما يختم الشخص قراءة حفظ القرآن سواء أن كانت أجزاءه أو بكامله ويقام عادة احتفال بهذه المناسبة، وهو بمثابة التكرم والتشرف للمختص به.

(٦) سعد ميخائيل، شعراء السودان (القاهرة)، بدون تاريخ، ص ٤٦.

(٧) حاجة كاشف بدري، وضع المرأة في تاريخ السودان المعاصر، رسالة ماجستير جامعة الخرطوم، كلية الآداب قسم التاريخ، ١٩٧٧م، ص ٢٥.

(٨) الشيخ بابكر بدري، تاريخ حياتي، ص ١٢٩.

فيقول أن العلماء قد علموا بناتهم وأمروا بتعليم بنات غيرهم أخصهم بذلك السيد محمد عثمان الميرغني القطب الأكبر الذي أمر أن تفتح الكتاتيب عام ١٣٠٣هـ - ١٨٨٩م[١].

ومما تقدم يتضح لنا أن المرأة في السودان في زمن المهدية، كانت تتلقى تعاليم دينها وتتعلمها بشتى الطرق سواء كان ذلك في خلاوي أو كتاتيب خصصت لهذا الغرض، أو في داخل المنازل. كما عملت المرأة في الخلاوي وفي الحلقات الخاصة بالمنازل. ولكن في نطاق كان أضيق من مما كان عليه أيام الفونج. فقد شهدت أيام الفونج[٢] بالفعل ازدهار في حركة تعليم المرأة وإسهامات بعض العادات في هذا المجال تؤكد ذلك وقد برزت منهن الكثيرات كما كانت حلقات العلماء[٣] تعج بالمتسابقات في طلب العلم.

ونسبة لقلة فرص تعليم المرأة في أيام المهدية في أم درمان. ولمحدودية اتصالها وخروجها، بحكم تعاليم الإمام المهدي، فقد خلق هذا المجال اتصال مع نفس الجنس. فقد كان طبيعياً أن يستثمروقت فراغها في نوع من النشاط لا يتعارض مع ظروف إتصالها. وعلى هذا كانت الحلول تناسب الظروف وكان التعليم محدود للمرأة في أم درمان مما اعانها في كيفية إدارة منزلها، والقيام ببعض الأعمال التي هي لصيقة بالمنزل كصناعة السعف والغزل والنسيج فعملية الغزل والنسيج تلك الحرف الصغيرة بالإضافة إلى أنها جاءت كنتاج طبيعي لوجود خام القطن في السودان إلا أن عملية الغزل أصبحت ضرورة لصناعة الدمور، والذي كان مستعملاً في الذي فرضه الإمام المهدي في البس على اتباعه. وعليه فإن المرأة في هذا المجال قد أسهمت إسهاماً فعالاً في عملية الانتاج[٤] كما تعتبر صناعة السعف من اهتمامات المرأة في أم درمان لأنها تحتاجها ف يعمل الأدوات والأواني المنزلية. كما كانت الخياطة من أهم الأعمال التي تقوم بها المرأة في ذلك المجتمع بالإضافة لبعض الأعمال الأخرى كخياطة " المفارش" والفوط والطواقي والتكك (عبارة عن قطعة من القماش تستخدم بدل ما يعرف بالاستك الذي يستخدم في الباس الداخلي للرجل)وهذا ما يحتاجه الفرد في مجتمع أم درمان آنذاك فقد كانت الطاقية والعمامة والجبة من الأزياء التي كان لها الانتشار الواسع في زمن لمهدية. ولقد ساهم الرجال الذين انتشروا في سوق أم درمان في خياطة الجيب[٥].

ولكل ما تقدم نجد أن تعليم المرأة في فترة المهدية قد كان تعليماً حرفياً أكثر من دينياً. كما ان ما أخذته المرأة من تعليم ديني هو بالضرورة يساعدها في أداء عباداتها المفروضة ويبصرها بأمور دينها.

---

(١) بابكر بدري، المصدر السابق، ص ٦٤.

(٢) حاجة كاشف بدري، الحركة النسائية في السودان، دار جامعة الخرطوم للنشر، ١٩٨٤م، ص٨٣.

(٣) جاء في كتاب الطبقات لابن ضيف الله، تحقيق يوسف فضل حسن، ص ١٧٧. عن الشيخ حمد ود أم مريوم ما يلي أما أتباعه من جهة النساء أكثر من الرجال أضعاف مضاعفة وقد جاء ذلك على لسان تلميذ الشيخ حمد ود أم ريوم أبونا المنع المنكر والكبائر أبونا الخلا الغازيات فقائر.

(٤) القدال، السياسة الاقتصادية للدولة المهدية، مصدر سابق، ص ١٠٠.

(٥) نفس المصدر والصفحة.

اللغة في أم درمان :

أن اللغة هي أهم وسيلة للاتصال لدى بني الإنسان وعن طريقها يتم نقل مفردات ثقافة الشعوب من جيل إلى آخر، فكل أسرة أو قبيلة أو مجموعة تقوم بتلقين تراثها لأجيالها القادمة حفظاً له من النسيان. وعن طريق مفردات اللغة يتم الاتصال بين الشعوب المختلفة وبواسطتها يتم تبادل ونقل الثقافات المختلفة من مجتمع لآخر.

تمثل اللغة أحد المعايير الأساسية في دراسة الأدب الشعبي. ويوضح هذا الرأي شرف الدين الأمين في ورقته عن الصلة بين اللغة والتراث قائلاً : " وربما صح القول أن الصلة بين اللغة والتراث في سياق ما ذكرناه أكثر وضوحاً من مجال الأدب الشعبي الذي يتضمن التراث القصصي والشعر الشعبي والغناء والملاحم والأغاني الشعبية والأمثال والألغاز أو غيرها من فنون القول الشفاهي. والواقع أن اللغة هي أحد المعايير الأساسية في تعريف الأدب الشعبي ولعل اللغة العامية هي ما يميز التراث القولي الشعبي وأدبه مكتوباً مروياً بلغة الشعب أعني اللغة العامية[1].وكانت تسود السودان اللهجات المحلية قبل دخول العرب فيه وقد كان دخولهم نقطة تحول في تاريخ اللغة، وارتبط هذا التحول بتحركات القبائل العربية ومناطق استقرارها حيث تركزت في الأطراف وتركزت في الوسط الذي كان أقرب إلى بيئتهم وهكذا أصبحت المنطقة الوسطة مركز الثقل بالنسبة للتجمعات العربية التي تعرضت للنفوذ العربي المباشر وتم للعربية الغلبة أو ما يشبه الغلبة على اللغات المحلية السائدة[2].

وعند فتح الخرطوم في عام ١٨٨٥م فرض الخليفة عبدالله التعايشي اللغة العربية كلغة رسمية ولغة التخاطب فأصبحت العربية تنتشر في أواسط السودان في المناطق الممتدة من بربر شمالاً إلى أطراف الجزيرة المروية جنوباً. ومن كردفان ودارفور غرباً إلى أرض البطانة شرقاً[3].ولا تمثل الغات الأخرى أي نوع من المنافسة بالنسبة للغة العربية في أم درمان فهي اللغة الرسمية ويتحدث بها ٩٦٪ من السكان. ويسمع المرء لهجات كثيرة بجانب اللغة العربية ومثال ذلك ما كانوا يسمون به الجهات كالآتي: الشمال بالسافل أو الريح والجنوب بالصعيد والشرق بالصباح أما الشهور القمرية فكانت تسمى هكذا: الضحية، العقبانية، الوحيد، الكرامة، الكرامتين،رجب، قصير،رمضان،الفطر، الفطرين.وهذه **بعض الكلمات باللجهة اوالعامية السودانية**

العربي السوداني	العربي الفصيح
اسمك منو	ما اسمك
أرجاني	انتظرني
'كر	تسلم او سلامتك
فاتت	ذهبت

(١) " د" ، شرف الدين الأمين عبدالسلام ، الصلة بين اللغة والترث، المؤتمر الثالث للغة في السودان، قاعة الشارقة، ديسمبر ١٩٩٥م، ص ٦.

(٢) " د" ، عون الشريف قاسم الإسلام والعروبة في السودان، دراسات في الحضارة واللغة، دار المأمون الخرطوم، ١٩٨٩م، ص ٢٦٩.

(٣) زينب عبدالرحمن أزرق، من خصائص لغة نساء أم درمان، أطروحة ماجستير، معهد الدراسات الافريقية الآسيوية، جامعة الخرطوم، ١٩٩٤م، ص ١٦.

هوي	تحذير
بري	حاشا
البكاء	المأتم
التكل	المطبخ
بدروشنو	ماذا تريد
الحلة	القرية
العوين	النساء
الزول	الشخص
الود	الابن
القارة	الهضبة
كعب	بطال
اوعاك	اعمل حسابك
امرق	اطلع بي هنا
كورك	رفع صوته
الحوش	المكان المسور بالطين
متين عرست	متين تزوجت
تنضم	تتكلم
غنب ساكت	استريح
هسع	هذه الساعة
هوي	أداة نداء[1]
ما بدورك	لا أريدك

(١) نعوم شقير، جغرافية السودان، المصدر السابق، ص ١٧٤.

بعض الأمثال التي كانت سائدة في أم درمان :

صاحبك ان اباك قلل عليه الحوم

ارقد دافي تقوم متعافي

العندو الدقيق ما بعدم النار.

الما بجيب تارو الحما خالو

ان كترن عليك الهموم ارقد نوم

ايد الميري طويلة

بيت الشورة ما خرف

الحق مر، الحمار ان شكّرو رقد

لخيل ظهورة عز وبطونة

بعض الفوازير السودانية السائدة:

دخل القش وما قال كش – الظل

ضلو في بطنه – الحفره

في البلاد خضراء والبيت حمراء – البطيخ

ترن ترن في البحر حرن – الحذاء.

وخلاصة القول أن أم درمان مدينة عريقة إن جاز لنا أن نصفيها بالعراقبة نشأت منذ القدم ومرت عليها فترات اضمحلال تجاوزتها واستعادت نشاطها وكبرت خلال القرن الماضي وتوسعت وساهمت المجموعات التي انتقلت إليها في عاداتها ثقافتها وهي الآن تعتبر العاصمة الوطنية وتتحدث مدينة أم درمان اللغة العربية كلغة أم وهي اللغة الرسمية للبلادوبعض للهجات الاخرى نسبة للعديد من الاجناس والقبائل المختلفه.

بعض الأثاث والادوات التي كانت تستعمل في المطبخ السوداني (التكل)انذاك :

من الأثاث الذي كان يستعمل آنذاك في المطبخ أو التُكل :

العنقريب: ومثال ذلك ما ذكره سلاطين باشا من ضمن أثاث منازل الخليفة وهو عبارة عن نسيج في شكل مربع من الخشب تشد عليه حبال أو جلد من جلود الحيوانات التي تقطع في شكل شرارئح رفيعة طويلة وتكون مشدودة في الأربعة أركان. تفرش بالسجاد أو البروش للنوم والجلوس[1].

البنابر : مفردها بنبر وهو عبارة عن كرسي خشبي صغير يستعمل للجلوس.

الككر: وهو كرسي يجلس عليه الملوك في الفونج وقري وهو عبارة عن قطعة من جزع شجرة متينة محفورة من أعلى وأسفلها مسندان لليدين وقاعدتين.

الأجربة: هي عبارة عن كيس مصنوع من جلود الماعز والضأن تستعمل للحمل في الأسفار للثياب والدراهم.

القرب: تعرف بالسقا أو الراوية أما الصغيرة تعرف بالسعن.

المرحاكة: وهي للطحن وعبارة عن حجر أسود طوله نحو ذراع وعرضه نصف ومعه حجران بيضاويان الشكل يقال للواحد الجرش والآخر الرواد طول الواحد نحو شبراً أما الرواد فتشحنه بشحنة الساعد والجرش.

الكجرة: هي عبارة عن قماش يربط أما العنقريب لكي يداري ما خلفه وبألوان جميلة وذلك يستعمل للعرس أيام العرس للمرأة النفساء ويستعمل عند كل القبائل التي كانت تسكن أم درمان أولاد البلد والعرب فقط مع اختلاف وتطوير بشكله قليلاً[2].

الدوكة: عبارة عن قطعة من الحديد مستديرة الشكل يصناع فيها الخبز في شكل أقراص مستديرة وهو ساخن وذلك بوضع النار تحتها ، وتصنع فيها مايعرف بالكسرة التي تصنع من الدقيق المخمر "العجين".

- ❖ الفندك: عبارة عن هون خشب كبير بيد من الخشب تدق فيه الحبوب.
- ❖ الأطباق: تصنع من سقف الدوم ويوضع عليها الخبز وألوان الأطعمة.
- ❖ المدق: عبارة عن يد من خشب للدق في الهون.
- ❖ الجبنة (القهوة باللهجة السودانية)هي عبارة عن إبريق من الفخار الثقيل للقهوة.
- ❖ الشرغرغ : عبارة عن إناء مربع الشكل من الفخار وهو يرافق الجبنة وله يد تصب به القهوة[3].
- ❖ البرم: مفردها برمه.
- ❖ اللدايات: هي عبارة عن ثلاثة حجارة توضع الأخشاب في أواسطها لطهي الطعام.
- ❖ الجر: هو الزير الكبير وتخزن فيه الذرة.

---

(١) سلاطين باشا ، السيف والنار ، المصدر السابق، ص ٢٨٨.

(٢) نعوم شقير جغرافية السودان ، مصدر سابق، ص ٢٦٠.

(٣) المصدر السابق، ٢٦٢.

❖ الدوراية: إناء من الفخار لصنع الطعام.

❖ العصيدة وهي عبارة عن عجين يوضع في النار في ما يعرف بالقدراوالدوراية ويرفع في ما يعرف باللدايا ت وهي عبارة عن ثلاثه حجارة كبيره يوقد في وسطها النار للطبخ . كما أن هناك ما يسمى بالملاح بالسوداني وهومايعرف بالايدام وذلك مثل (ملاح الشرموط والويكة واللوبيا والملوخية والبصل) وتعمل هذه الاصناف من لحم الضان أو الإبل أو البقر ومعها البصل. ويستخدمون السمن أو السيرج أو زيت السمسم للطبخ[١].

وقد كانت هذه الأشياء قمة ما يستعمل آنذاك ولم يكن المجتمع يرقى إلى استعمال أرقى منها إلا نادراً أو قليلاً ما كان يوجد في بعض الأسر الراقية الغنية من صحان الصيني والزجاج.

الزواج والمناسبات العامة في مجتمع امدرمان:-

الزواج:-

"الجيزة نسوانية" . "اتفاق روحي".

لقد خص المهدي أن يكون الزواج برضى الزوجة وموافقتها وذكر ذلك لسببين:

الأول: أن رضى المرأة ضروري لصحة العقد إذن الجيزة نسوانية[٢].

ولذا فسخ كل العقود التي اتضح أنها بدون رضى النساء شفقة على الطرفين[٣].

الثاني: إن العلاقات بين الناس يجب أن تكون روحية وليست جسدية وإن الزواج غير المبني على الاتفاق الروحي يعطل صاحبه[٤].

كما وضعت تعاليم المهدية حلاً لمشكلة الزواج بأن دعت الشباب من الجنسين إلى الزواج الجماعي. وقدمت بعض المساعدات المالية لهن لمن يريد الزواج وخصصت يوماً عاماً للزواج الجماعي وهو يوم ٢٧ رجب من كل سنة. كما تحدد عمر الفتاة بعشرة سنين وإذا رفض وليها ضرب بالسوط. وأن يكون مهرها عشرة ريالات بالنسبة للبكر ولباس قرباب ومنع المباهات والتفاخر في الأفراح وأن تحتوي الوليمة على خروف واحد.

ويذكر نيوفيلد أن تاجر يدعى أحمد عبدالمجيد في بربر بلغت تكاليف زواجه نحو ألف جنيهاً. فوصلت أخباره للخليفة الذي أمر بمصادرة أمواله وطلق منه زوجته، أنه خالف أوامر المهدية ولم يتزوج بعشرة ريالات فقط[٥].

---

(١) الأستاذ حسن نجيله، ملامح من المجتمع السوداني، ص ١٨٠- الخرطوم ١٩٦٥م.

(٢) أبو سليم، آثاره، ج٥، ٧٤١، ٢٦.

(٣) أبو سليم، أثار، ج ص

(٤) نفسه خطاب إلى محمد التويم المادح ح ١- ١٥١، ص ٤١٧.

(5) Nufeld. C. Aprisoner of the Khalifa. London, 1899, P.86.

ولعل هذا المسلك يشبه ما تقوم به الدولة الآن من عمل زواج جماعي لمساعدة الشباب اليوم. وهذا قد لا نتفق مع رأي سلاطين باشا الذي ذكرناه سابقاً حول أن تخفيض المهدي الذي قد أضر بالنساء نسبة لقلة تكاليف الزواج، ولربما كان في اعتقادي عكس الذي يجري أو أنه كان يكتب بدافع الغل أو الحقد من الخليفة الذي حبسه وشدد مراقبته عليه.

أيضاً لاحظنا أن المهدية تدخلت في أدوات الزينة والتجميل والتي كانت تستعملها المرأة السودانية مثل ، الذهب، والفضة والعاج الذي يصنع من سن الفيل كالدلكة لانها تصنع من الذرة الذي يعتمد عليه الناس في غذائهم [1]

فالزواج كظاهرة فولكلورية في أم درمان هو عبارة عن مجموعة طقوس وعادات وتقاليد تتم على أساس عنصر الزمان والمكان على أن تأخذ تلك الممارسات المواقف الاجتماعية فلا بد من وجود أدنى حد ممكن من القبول أو الاتفاق الجماعي حول تلك الطقوس أو المعتقدات التي تمارس وتستعمل خلال تلك الطقوس الكثير من الألفاظ والأعداد والرموز على أساس قوانين أو أنظمة محددة[2]. وكانت السن التي يتزوج عندها البنات والأولاد عادة سن العشرة فما فوق للنساء والخامسة عشر للرجال[3]. وتحديد المكان فلكورياً نقصد به الزمان الذي يحدد ليوم الزواج والزمان الذي تجري فيه كافة المراسيم للزواج . ففي بعض أجزاء السودان تتزامن احتفالات الزواج مع بعض المواسم كالحصاد أو الاستدلال بالنجوم عند قبيلة المناصير مثلاً لتفاؤل السكان بذلك. كما يرتبط تحديد يوم الزواج ببعض الأيام المباركة كيوم ٢٧ رجب وأيام الأعياد الدينية [4].

أما الفتاة في هذه المرحلة فإنها تعد جسدياً لأن تكون زوجة المستقبل فتختن وتشلخ فيما بين السادسة والعاشرة من عمرها. ورغم أن هذه العادات مؤلمة للفتاة ولكن يتبدل ذلك الألم إلى فرح وبهجة وأمل بالمستقبل القادم ويبدأ التحليل الفعلي استعداداً للزواج بالعناصر المكونة كالشيلة وسد المال وتتكون الشيلة من ثلاثة أجزاء هي المواد الغذائية، الملابس، الروائح، والعطور بانواعها٠ أما سدالمال هو المال الذي يأتي به العريس كمهر شرعي لعروسه فهذا يتكون من مقدر المال حسب امكانية العريس علما بان الناس قد اتفقوا في ذلك لوقت على مقدار معين من المال كمهر شرعي للبنت . أما الملابس للعروس والعريس فهي تمثل شكلاً رمزياً من أشكال ملامح العبور للمرحلة الأخرى ولذا كانت (٤)

بسيطة كماً ونوعاً أما اليوم فالملاحظ المغاله الزائدة في المهورالامر الذي ادى لعزوف الشباب عن الزواج لعدم الامكانية المادية للدخول في عالم الزواج لانه يرى الاستحاله في ذلك ٠

---

(١) (الدلكة) هي من العطور السودانية وهى عبارة عن عجينة مصنوعة من الذرة، وتخلط بمجموعة عطور، بعد أن تعد بطريقة معينة ويدلك بها الجسم.

(٢) الطيب محمد الطيب وآخرون، التراث الشعبي لقبيلة المناصير، مرجع سابق، ص ١٩.

(٣) نعوم شقير، تاريخ السودانمصدر سابق.

(٣)أمل عمر أبو زيد ، دراسة لبعض أدوات الزواج المرتبطة بالمراسيم والطقوس الزواج بمدينة أم درمان ١٨٨٥- ١٩٨٥م، أطروحة ماجستير، معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم، ص ٢٤- ٢٥.

(٤)المصدر نفسه.

الطقوس والأدوات المستخدمة في الزواج:-

وما اولى التجهيزات هناك ما يعرف بعملية (دق الريحة) والطقوس المصاحبة مثل (**دق الدنقر**) فتعتبر في مجملها إحدى ملامح الاستغلال للإمكانيات المحلية والشعبية والبيئية. إذ تصنع كل الأدوات المستعملة في تلك العملية من "نبات القرع" الخلوي بعد وضعه في الماء، بالإضافة إلى استعمال أدوات (دق الدنقر) إعلاناً لبدء الفرح والابتهاج. كما أن الأغاني. كما أن الأغاني المصاحبة لهذا الطقس بها الكثير من الفخر والإعزاز بالأهل والعشيرة فمنها:

حس " صوت" الدنقر مرق " خرج" وخبير أب بكر مرق برة الدنقر عوّا "أصدر صوته" والباب سيدي هوي تعال نقسمو معاك سوى[١]

ومن الادوات التي يحفظ فيها عطور الفرح ما يعرف (بالحُق)[٢] كأداة مهمة في جميع المراحل المختلفة للزواج يؤهله لذلك وظيفته كمستودع وإناء لحفظ العطر والروائح " حيث يحفظ فيها الصندل بعد تكسيره إلى قطع صغيرة " ولا يفتح هذا الحق إلا بعد يوم(الجرتق)❖❖ حيث يكون في مقدمة صينية الجرتق.

ومن العطور التي تصنع للفرح "البخوروالخمرة" وهي نوع من العطورالتي تعبر عن عطور للزواج لز وتعتبر هذه الأشياء أحد أشكال اللقاء الاجتماعي حيث يجتمع الجميع من الأقرباء والأصدقاء والجيران لغرض إعدادها، كما أنها من ناحية أخرى تمثل أحد الوسائل التعليمية في المجتمع التقليدي، فنلاحظ تبادل الخبرات والنصائح في كل ما يختص بهذه الشئون النسائية عامة وشئون الزواج على وجه الخصوص[٣].

وهناك ما يعرف "**بالدلكه**" وهى ايضا تصنع محلياً من ضمن عطور العروس حيث يذكر الأطباء الفوائد المفيدة للدلكة" بأنها تقوي الأعصاب وتقلل الإفراز الجلدي وتساعده على إزالة شعر الجلد كما تكسبه نعومه وأيضاً ترطبه وتخفف حرارته[٤].

الدلال: ومن ضمن مايصنع لاستخدامه كزينة للعروس في العين وهو ما يعرف (بالكحل) تعتبر من مميزات الجمال في المجتمع السوداني كما هو الحال في المجتمع العربي ككل. ويعتبر هو علاج لبعض أمراض العين. والجدير بالذكر أن الأدوات التي يستعمل بها الكحل " الدلال" هي: "المكحلة والمرواد".(٥)

---

(١) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٢) الحق هو إناء: لحفظ العطر والروائح، يصنع من خشب يعرف " بالقفل". وهو إناء مخروطي الشكل متعدد الزخارف والألوان، حيث يغلب اللون الأحمر كما يستعمل اللون الأصفر، الأخضر والأسود.

الجرتق عبارة عن مجموعة طقوس وعادات وتقاليد تمارس في معظم الأحيان باستعمال عدة أدوات ومواد ترتبط بتلك الطقوس حيث يتعلق استعمال تلك الأدوات والمواد خلال الطقوس التي تدور حولها المعتقدات وله يوم خاص به يعرف بيوم الحرنق وغالباً ما يكون في اليوم السابع لاحتفالات الزواج حيث يعتبر ختاماً لها وهو مكون من كلمة " جرت" النوبية الأصل والتي تعني الجريدة الحمراء اللون والتي تستعمل في هذه المناسبة وظروف الحياة الأخرى.

(٣) أمل أبو زيد، الزواج في أم درمان، المصدر السابق، ص ٩٩.

(٤) نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان، بيروت، دار الوثائق العربية، ١٩٦٧م.

(٥) أمل أبو زيد، الزواج في أم درمان، المصدر السابق، ص ٩٩.

العادات التي تتدخل من ضمن مراسيم الزواج:

ايضا ومن ضمن العادات والطقوس المصاحبة للعروس والتي تتدخل كمراسيم في تجهيزات الزواج:

دق الشلوفة:أي الشفاة (أي تغيير لون الشفاة وهو كنايه عن الجمال في ذلك الوقت) فالأدوات المستعملة في هذا الطقس تحمل في مضمونها رموز معنوية لإضفاء الحيوية الجمال على وجه المرأة .

وهناك أغاني تصاحب هذه العملية المؤلمة مثل :

دقولا دقولا بت الراحل أب دولا (تعني صاحب الدولة)

دقولا دقولا وبنية ماها ميدولة (تعني عاقلة رزينة)

الليلة حارقك (يؤلمك) وباكر الضحك قرقر.

وهذه الأغاني تخفف من وطأة وخز الإبر التي تضرب بها الشفاه حتى تسيل دماً.

الشلوخ:- ومن مراسيم التجهيزات والطقوس المصاحبة للعروس وما يستعمل فيها وهي عبارة عن خطوط ترسم على الوج ثم تقطع بالموس تللك الرسومات وهي تعبتر كرمز للقبائل المختلفة ولبلدان ايضا الشمال والشرق والغرب والجوب٠

هذه الممارسات مرتبطة بالقسوة والأذى والإيلام إذ أن هذه العمليات لا تصاحبها وسائل تخدير. كما يمارس خفاض للنبات ويتبع هذه العملية آلام مبرحة عند الزواج والولادة. وحتى الوسائل المستخدمة لتجميل الفتاة لا تخلو من الألم والقسوة وهم يقولون " درب السي ما فيه حي" أي في سبيل الجمال لا يحق للمرء أن يتذمر ومن الممارسات التي ارتبطت بالقسوة والألم، الشلوخ ودق الشلوفة أي الشفة، تخريم الأثنين والأنف والمشاط كل هذه الممارسات جعلة العقاب شيء لا يتجزأ من التركيبة الاجتماعية والنفسية لأفراد المجتمع.

وبارغم من قساوتها على الجنسين الرجل والمرأة إلا أنها كانت تفعل كشيء أصبح جزء من حياة ذلك المجتمع ويكتمل بها الأمر٠

"المشاط" وهو زينة الرأس. وزينة الشعر ويعد من ملامح الجمال في المجتمع السوداني وفيه طقوس تمارس مثل الحلوى والبلح للماشطة والفتيات وتقوم الماشطة بأكل جزء من كل بلحة لأن ذلك فال لمن لم تتزوج ولأن البلح رمز للخصوبة والبقاء والنماء. ويستخدم في المشاط "البلال" (وهو عبارة عن دهن معطر بالصندل والمحلب والصندلية) ويحضر إناء فيه صمغ "وودك معجون" والصندلية يوضع في نهاية كل ضفيرة٠

وركوع العريس أمام الماشطة وعروسه فه كما تقدم القرابين للآهة،ففيه شيء من الإجلال والتعظيم للماشطة التي تعتبر رمزاً للتفاؤل. وما هو ما يستعمل في ذلك الطقس كما (اللصاق والمقدري) وهو بمثابة ما يسمى بالباروكة أو الشعر المستعار اليوم. وتتابع الأدوات والمواد التي تستعمل في طقوس فترة التجهيزات والمراسيم فمنها ،[1]

---

(١) آمل عمر أبو زيد، المرجع السابق، ص ٩٧.

الدخان والغرض منه هو اكتساب بشرة العروس لوناً جميلاً ورائحة ذكية كما سبق أشرنا إليه ومن ناحية أخرى تعتبر عملية الدخان من أهم طقوس الفرح ويكون لمدة طويلة شهر او اربعون يوما قبل الفرح حتى يصنع طبقة فوق البشرة يتم التخلص منها عن طريق إزالتها باستعمال "عود" أو " قشة" صغيرة . كما أن الدخان من العوامل المريحة للجسم عموماً إذ أنه يخترق طبقات البشرة الخارجية ويتقلقل منها إلى عظام وهو شبيه بما يعرف اليوم باالساونا لانه يعطي الجسم النعومه والنضارة ويعطرة وهو يدخل من ضمن المشيرات ٠ وتقوم بضع النساء ذات الخبرة بعمله للفتاة من بداي الاعلان عن الفرح مما يجعلها تظهر بلون جميل عند الفرح واه فوائد عظيمة للمراة٠[١]

الحنة: من مظاهر الزينة لدى المرأة السودانية ويوضع هذا الخليط في إناء.لتزين أيديها وأرجلها (بالحناء) والحنا بلونها الأسود ورائحتها اللطيفة الذكية تعتبر من المثيرات الجنسية كما أنها ترمز إلى الفرح والتفاؤل. ويستدعي أن تجلس العروس لساعات طويلة حتى يجف معجون الحنة. فهو دلالة على العبور من مرحلة لأخرى بالنسبة لطقوس الزواج . ويكون معجون الحنة في صحن كبير من الصيني تثبت فيه سبعة شموع مضاءة ترمز إلى الفرح والتفاؤل والغرض من إنارة هذه الشموع واستعمالها هو الاعتقاد في مقدرة النار على طرد الأرواح الشريرة وهو اعتقاد قديم معروف لدى الكثير من الشعوب. [٢]

رقصة العروس: هي أيضاً من طقوس الفرح ويستخدم فيها "الدلوكة والبرش" أما الدلوكه، او (الطبل) فهو يستعمل لإعلان الوفاة أو الحرب. ويعتبر صوت الدلوكة مركز لتجمع الشباب من الجنسين وفرصة متاحة لإنشاء علاقات جادة بينهم وتعنى بعض الاغاني التراثية مثلا :-

اللول لول العروس بنت السرور العظمة

اوغيرها من الاغاني الاخرى كما أن الأغاني المصاحبة لهذا الطقس بها الكثير من الابتهاج والفخر والإعزاز بالأهل والعشيرة.

" **فركة القرمصيص**" ومن الأدوات المستعملة في الزواج هي ثوب خاص بالعروس مصنوع من الحرير الملون بالألوان الزاهية البراقة وهي ذات ألوان وخطوط متشابكة لدرء العين من العروس وقد تزخرف في بعض الأحيان " بالجنية ونصف الجنية" الذهب المعروف٠

ايضا من العادات المستخدمة في الفرح" **الرحط" أو "الرهط"** وهو عبارة عن سير مصنوع من جلد أحمر يشد كما تشد السراويل تلبسه الفتيات قبل إدراكهن. فإذا أدركن أو زوجن خلعنه[٣] وكان يستعمل كلبس للفتيات الصغار وبعد الزواج يستبدل "بالقرقاب[٤]" كزي دائم للفتاة[٥].

البرش: يصنع من السعف ويزخرف بالفضة أو الذهب ويستعمل لعملية الرقص لونه أحمر غامض كبدي.

---

(١) نفس المصدر السابق، ص ٩٨.

(٢) اغاني من التراث تغنى في الفرح٠

(٣) عون الشريف قاسم، قاموس المهجة العامية في السودان، شعبة أبحاث السودان، جامعة الخرطوم، ١٩٧٢م، ص ٢٧٩.

(٤) القرقاب هو عبارة عن ثوب نسائي كانت تلبسه في الماضي النساء المتزوجات فقط وهو يصنع من مختلف الخامات. أطواله حوالي ٤٥٠×٩٠ حول الخاصرة وتركه ينسدل في القدمين مغطياً كل تلك المساحة.

(٥) أمل عمر أبو زيد، دراسة لبعض أدوات الزواج المرتبطة بالمراسيم والطقوس الزواج بمدينة أم درمان ١٨٨٥- ١٩٨٥م، أطروحة ماجستير، معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم، ص ٢٤- ٢٥.

ومن مراسيم التجهيزات والطقوس المصاحبة للعروس وما يستعمل فيها "المشاط" وهو زينة الرأس. وزينة الشعر ويعد من ملامح الجمال في المجتمع السوداني وفيه طقوس تمارس مثل الحلوى والبلح للماشطة والفتيات وتقوم الماشطة بأكل جزء من كل بلحة لأن ذلك فال لمن لم تتزوج ولأن البلح رمز للخصوبة والبقاء والنماء. ويستخدم في المشاط "البلال" (وهو عبارة عن دهن معطر بالصندل والمحلب والصندلية) ويحضر إناء فيه صمغ "وودك معجون" والصندلية يوضع في نهاية كل ضفيرة ٠

جرت العادة قديما في ان تسكن الفتاة مع اهلها او اهل الزوج وذلك في الحجرة المخصصة للعريس والعروس فهي غالباً ما تكون في بيت أهل العروس ولكنها منفصلة تماماً عن بقية حجرات البيت وهي تحتوي على عنقريب وسجادة حيث تستعمل كبديل لخزينة الملابس اليوم. وقد تطورت هذه "الحجرة" حديثاً وأدخلت عليها عدة تغييرات فأصبح العنقريبان يعرفان بسرير الدبل او غرفة النوم الحديثةوغيرها من متستحدثات العصر[١].

ويتضح مما سبق إن الإدارة تعتبر جزءاً مهماً في الزواج في أم درمان رغم تغير الأداة حسب المتغيرات المختلفة في المرحلة الأولى وهي مرحلة التجهيزات.

أما اليوم فالملاحظ الاهتمام المبالغ منه لإحضار أكبر عددية ممكنة من أقمشة الملابس والثياب الفاخرة والتي غالباً ما تكون غير عملية أو مريحة في استعمالها وخاصة بالنسبة للنساء السودانيات وذلك من خلال استعمالهن الدائم أيضاً المناسب طقس السودان[٢]

ناحية أخرى تمثل أحد الوسائل التعليمية في المجتمع التقليدي، فنلاحظ تبادل الخبرات والنصائح في كل ما يختص بهذه الشئون النسائية عامة وشئون الزواج على وجه الخصوص[٣].

كما أن الأغاني المصاحبة لهذا الطقس بها الكثير من الابتهاج والفخر والإعزاز بالأهل والعشيرة فمنها:

مثلا :- نارنا المهندس جاء ورسم البناء

ما بدوها للسكارى ما بدوها ❖❖❖❖ للحياري الا سائق الطيار

ياعنيي اللول الول يا عيني عروسنا دبل

طقوس العريس:-

أما طقوس العريس فهي الحنة أيضاً وليس ثوب السرتي من مادة "الحرير" وارتداءه يرمز للعظمة ويرمز إلى أن العريس من العظماء والملوك الذين يتميزون وحدهم بارتداء أمثال تلك الأنواع من الأقمشة الفاخرة. ويحمل العريس سوطاً في يده أو سيفاً وهذا يدل على الحمايةولا الى بيت العروس والشجاعة والرجوله.

---

(١) أمل عمر أبو زيد، المرجع السابق، ص ٩٧.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٩٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٩٩.

سيرة العريس :- اولى الاشياء التي تعبر عن بداية الزواج بصورة رسمية وشرعية(كتب الكتاب) الذي يعتبر بمثابة وضع اللبنات الأولى لتأسيس حياة اجتماعية واقتصادية وأسرية جديدة. وبعدها تقام مراسيم والطقوس مثل (قطع الرحط والجرتق ولبس الحريرة وعمل الضريرة ولبس " سبحة اليسر")

والسيرة قبل غروب الشمس للنهر (فهي عبارة عن موكب فرح من الرجال والنساء لاهل لعريس تتغنى فيه النساء باجمل الاغنيات وصولا الى بيت العروس لاتمام الفرح) يعقبه الجرتق كطقس فييمارس نفس اليوم في مايسمى (بعنقريب الجرتق) حيث يتجه الشخص ناحية القبلة حيث تقوم النساء بوضع بعض العطور الجافه على راسه ويتغني الفتيات ببعض اغاني التراث مثل: العيل والزين او دى اليوم الدايرنه ليك يا فلان

وهو يقوم برش بعض العطور على الموجودين وهو يقف في عنقريب الجرتق وسط تغني الفتيات باغاني الجرتق.

النقطة:

تعد أكبر دليل على سيادة التعاون المشترك والإخاء سواء أن كان ذلك مادياً أو معنوياً.

الطعام المستخدم في الزواج :-

بعد أن تحضر سيرة العريس يقدم لها اللحوم والشواء و"الكسرة" وغيرها من ما لذ وطاب ويعتبر ذلك دلالة عل الكرم.

أما نوع الشراب فهو يدل على استخدام البيئة والإمكانات المتاحة على أوسع نطاق فنجدهم يستعملون (البلح – الذرة – القمح) وتصنع بعض المشروبات المسكرة من العيش والتي تقدم للمدعوين بالرغم من أنها ضرب من المشروبات الروحية التي حرمها الإسلام الذي يشكل الديانة والعقيدة.

وتكون أيام الزواج سبعة أيام وفي يوم الجرتق يقوم العريس " بفك القيد" وهو إشارة لخضوع الفتاة له ورغبتها الجادة فيه(١)

نخلص مما تقدم ذكره من المواد والأدوات المستعملة في طقوس الزواج قديماً وكيفية ممارستها بأنها تمتاز بالبساطة والبعد عن المظهرية فهي تستعمل حسب الحاجة المتاحة والاهتمام بحداثة الأدات نفسها وذلك فقط لأجل الفال وجلب الفرح في النفوس وإشاعة السعادة والمودة بين الجميع كما أن ذلك يوضح لنا من ناحية أخرى وسيلة تعليمية في ذلك المجتمع التقليدي. فنلاحظ تبادل الخبرات والنصائح في كل ما يختص بهذه الشئون النسائية عامة، وشئون الزواج على وجه الخصوص.

بالرغم من ارتباط تلك الحياة في البيئة السودانية بالقسوة والشدة والصرامة وذلك لقسوة الحياة نفسها فنجد أن ما يمارس في المجتمع من تطبيق لعاداته وتقاليده يتقسم بالصرامة، فلا عجب أن وجدنا هذه الشدة والصرامة ممارسة في العملية التعليمية فهي لا تتجزأ عن بقية ما يمارسه المجتمع فنجد أن ما يستخدم في الطب الشعبي هو "الحجامة" إخراج الدم من الجسم الذي يعتبر فاسداً. وهذه الممارسات مرتبطة بالقسوة والأذى والإيلام إذ أن هذه العمليات لا تصاحبها وسائل تخدير ومن الممارسات التي تتميز بالقسوة أيضاً عادة البطان عند الرجال وهي الضرب بالسياط في الجسم العاري وهذه العادة في العرف السوداني والتي تدل على الرجولة والشجاعة. تخريم الأثنين والأنف والمشاط كل هذه الممارسات جعلة العقاب شيء لا يتجزأ من التركيبة الاجتماعية والنفسية لأفراد المجتمع.

وبالرغم من تعاليم المهدية لمنع الممارسات والعادات ورغم قساوتها على الجنسين الرجل والمرأة إلا أنها كانت تفعل كشيء أصبح جزء من حياة ذلك المجتمع ويكتمل بها الأمر.

المناسبات في امدرمان

ومن المناسبات التي كانت تقام في أم درمان في بعض الأيام كاحتفالات رسمية "العرضة" أو استعراض الجيش".

وهي من المناسبات الرسمية منذ عهد المهدي حيث كان يقوم باستعراض الجيش وتدق الطبول ويخرج المهدي ويمنع المجاهدين إطلاق النار داخل المدينة أثناء المسير أو ركوب الخيل حيث يكون الزحام[١].

أما في عهد الخليفة فقد تغير نظام العرضة بعض الشيء إذ أن الخليفة عدل عن حضور العرض الأسبوعي بعد تنظيم رايات الجيش وكان يستعمل مركبات الحكمدارية التي غنمها الأنصار عند سقوط الخرطوم وكان العرض من ذلك حتى يكون ظاهراً من موضع أعلاه[٢]. وكان الخليفة يركب الجمل في غدوه ورواحه وتبدأ العرضة من بيت الخليفة وتدق الطبول وترفع الأعلام والرايات الخضاره ثم الصفرا ، وقد أناب يعقوب أخو الخليفة عن الخليفة في استعراض الجيش[٣] وقد سمي حي العرضة بأم درمان بذلك الاسم لأنه مكان استعراض الجيش.

وبيد أن هذا الاستعراض كان بمثابة التوجيه المعنوي للجيشوعرض قوته أمام المارقين والخائنين على حكم المهدية بقصد إظهار قوة جيوش المهدية ورفع روحه المعنوية لمواصلة الجهاد.

وايضا كانت تقام في أم درمان بالإضافة للمناسبات العامة مناسبة المولد النبوي الشريف وعيد الرحبية وهو يوافق ٢٧ رجب ثم العيدان عيد الفطر المبارك وعيد الأضحى ويعتبر من أهم الأعياد لأن المدينة كانت تستقبل أعداد هائلة من القادمين إليها للزيارة أو تلبية لطلب الخليفة عبدالله كان الخليفة يطلب أمراء الأقاليم وقادتها لتيجدد الولاء في العيد ولاستعراض المشاكل ووضع الحلول لها كما كان يستعرض القبائل التي يشك في ولائها ويجبرها على القدوم إلى المدينة وإعلان الطاعة له[٤].

حتى إن البعض قد أورد أن الخليفة جعل زيارة القبة في هذا الموسم عوضاً عن الحج وزيارة قبر الرسول ﷺ ولكن يبدو أن هذا محض افتراء من قبل بعض المؤرخين.

فقد كانت أم درمان تلك العاصمة الدينية المقدسة تهتم بالاحتفال والمناسبات الدينية الهمة كما إن تلك العرضة التي يقوم بها المهدي ومن بعده الخليفة هي بمثابة التفقد للجيش والشعب معاً في مدينة أم درمان أو نوع من أنواع التوجيه المعنوي لتلك المدينة الحربية الدينية.

التعليم الديني (الخلاوي):

لكي نفهم الأحوال الاجتماعية في الدولة المهدية لا بد لنا من معرفة نظام التعليم في الدولة لأن علاقة التعليم بالمجتمع علاقة بناء الفرد ليصبح عضواً فاعلاً في تطوير مجتمعه، ونقله من مرحلة الجهالة إلى مرحلة التفكير المفيد. هذا فضلاً عن إن أهداف التعليم ومواده كانت ولا زالت وسيلة لتحقيق رغبات وتوجهات المجتمعات روحياً ومادياً.

---

(١) محمد إبراهيم أبو سليم، مجلة الخرطوم، يوليو ١٩٦٦م، العدد ١، المصدر السابق.

(٢) محمد إبراهيم أبو سليم، ألمصدر السابق، ص ١٠٦.

(٣) نعوم شقير، المصدر السابق، ص ١٠٧.

(٤) محمد إبراهيم أبو سليم، تاريخ الخرطوم، المصدر السابق، ص ١٠٦.

وإن التعليم الذي سمح به المهدي وسعى لتطبيقه في دولته ليس هو التعليم المدني أو العلماني الذي عرفه السودانيون في العهد التركي المصري وإنما كان التعليم الديني أو التعليم الشرعي أي علوم القرآن الكريم والسنة الشريفة ذلك أن المهدية جعلت التعليم الديني في المرتبة التي تلي الجهاد مباشرة[١] وألزمت به كل أتباعها.

وأعتقد أن هذا النهج ليس قريب على زعيم ثورة إصلاحية دينية. اذ أدرك أن التعليم هو إدارة ووسيلة لنشر دعوته وتصحيح ما علق بالمجتمع السوداني من شوائب وبدع ومفاسد. وكان يرى أن العلم ليس من بطون الكتب فحسب إنما يلقيه الله على صدر عباده ولذا ذكر بأنه يتلقى علمه بالهام من الله سبحانه وتعالى ونشره لكافة الناس[٢] الصالحين إن ذلك الاعتقاد هو الذي جعله يرفض أخذ تجربة غير من سبقوه من أهل العلم ويستغني عن العلماء المعاصرين لحركته ممن كانوا في داخل السودان مثل الفقهاء والعلماء ورجال الطرق الصوفية[٣].

فقد رجع المهدي في أحكامه وأقواله إلى ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة[٤] فهو بلا شك قد اطلع على كل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحث على التعلم والتعليم، ولعله سعى إلى توجيه أنصاره للأخذ بقول الله سبحانه وتعالى: ((هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)) [٥].

وقد حث النبي ﷺ على العلم في أحاديث كثيرة ولعظمتها نورد بعضاً منها :

قال عليه الصلاة والسلام (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) [٦].

بدأ التعليم في عهد المهدي بخلوة داخل حوش المسجد الذي شيده وكان يعلم التلاميذ أمور دينهم وفتح باب الاجتهاد وهذا يدل على أنه كان من الفقهاء المجتهدين لا الفقهاء المقلدين.

فلسفة التعليم الديني في دولة المهدية:

قامت فلسفة التعليم على مبادىء التربية الإسلامية التي تعالج معالجة شاملة أي أنها فلسفة تتسم بالشمول الجسماني والعقلي والمادي والمعنوي، وذلك أن التعليم في المهدية لم يقف عند حد تعليم التلاميذ " الحيران" القراءة والكتابة وإنما امتد إلى تربية خلقهم، وبعث الصفا في نفوسهم وترسيخ العادات الطيبة في عقولهم، ورسم الطريق القويم أمامهم.

كما ركزت تلك الفلسفة على حق السودانيين جميعاً في التعليم الذي اعتبر حقاً مقدساً وواجباً على كل أفراد المجتمع الشيوخ منهم والصغار والذكور والإناث[٧].

---

(١) دفتر صادر رقم ، ص ٣٧ " خطاب من محمد المهدي للفقيه أحمد حاج على المجذوب بجبهة كسلا" بتاريخ ٢٧ ربيع أول ١٣٠٢هـ/٢٥ يناير ١٨٨٥م، دار الوثائق القومية.

(٢) محمد إبراهيم أبو سليم، الحركة الفكرية في المهدية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٢م، ص٥.

(٣) إبراهيم الحردلو، الرباط الثقافي بين مصر والسودان، جامعة الخرطوم، ١٩٧٧م، ص١٩.

(٤) محمد عمر بشير " د"تطور التعليم في السودان، ترجمة هنري رياض وآخرون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م، ص ٧٥.

(٥) منشورات المهدية، الجزء الثالث، (الأحكام والآداب، ص١٦٤، دار الوثائق المركزية).

(٦) ابن ماجه، سنن ابن ماجة،تحقيق فؤاد عبدالباقي، الجزء الأول، ص ١٧.

(٧) الدكتور مكي شبيكة، السودان عبر القرون، مرجع سابق.

ولعل في ظني أن تلك الفلسفة في المجتمع السوداني، أدت إلى إحداث ثورة حقيقية في التعليم . فهي ثورة رفضت نظم ومناهج التعليم السابق بحجة أنه أصيب بتشوهات كثيرة فاسدة في العهد التركي المصري، وبسبب قبول الفقهاء والمشايخ للجريا والهدايا والمرتبات من حكومة الأتراك[1].

إذن على ماذا اعتمد المهدي في فتواه هذه؟

الاجابة على ذلك على ما كان يفعله النبي ﷺ وصحابته كانوا إذا قرءوا القرآن الكريم وفسروه للناس لا يقبلون لذلك أجر غير الثواب من الله[2].

أغلق المهدي المدارس التي قامت في العهد التركي وكان يتخرج فيها من الموظفين من يستوعب في الوظائف في دواوين الحكومة المساعدة في الإدارة والكتابة. وكان لهذه الطبقة أكبر الأثر في الحياة الاجتماعية ليس في عهد التركية فحسب، بل أيضاً في عهد الدولة المهدية وذلك لإنصافهم المباشر لعامة الناس ونشر الوعي بينهم. فاستعان بهم المهدي في حكم الأقاليم والمجال القضائي، وكان الناس لا يحبذون ذلك التعليم وإنما يفكرون أنهم ظلمة وأعوان ظلمة[3].

وكان بعض الناس يرى أن هذا النوع من التعليم رجس من عمل الكفار فلم يرسلوا أبناءهم إلى المدارس الحديثة أو إلى مدارس الإرساليات خوفاً عليهم من الكفر.

ولما كان المهدي قد عاش وسط هذه الطبقات العامة وتلمس رغبات المجتمع وشكواهم قد تأثر بنظرتهم نحو التعليم الحديث، فأغلق جميع المدارس المدنية والكنيسة[4].

وأرى أن المهدي قد إستجاب لرغبات الناس ولدعوتهم لتغيير مناهج التعليم الحديث بمناهج دينية تتناسب مع مبادئها وأهدافها. ولعل ذلك يقودنا إلى أهداف التعليم في دولة المهدية.

أهداف التعليم في المهدية:

١- تزويد الدارسين بالعلوم الدينية التي تمكنهم من الإيمان بوحدانية الله واتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

٢- ربط دراسة القرآن الكريم وتفسيره بالتطبيق العملي للفروض والواجبات والعبادات الواردة فيه.

لأنه لاحظ من خلال دراسته في الخلاوي الاهتمام الكبير بالحفظ أكثر من التطبيق فكان بعض الحفظة يشربون الخمر ويقرءون القرآن وهم سكارى. فرأي أن يهتم بتطبيق الواجبات والعبادات للقضاء على ظاهرة الحفظ التي لم يصحبها التزام بالعبادات مثل الصوم والصلاة أو الأحكام الدينية، مثل الأحكام المتعلقة بالأحوال الشخصية والمسائل المدنية وكذلك الأحكام المتعلقة بالقضايا الجنائية.

---

(١) نفس المرجع، ص ٢٣٣.

(٢) أحمد شلبي الدكتور، موسوعة النظم، مرجع سابق، ص ٢٣٣.

(٣) صالح حسن سوار الذهب، رسالة ماجستير مقدمة لكلية الآداب وقسم اللغة العربية، جامعة القاهرة، عام ١٩٧١م، ص ١٧٧.

(٤) محمد إبراهيم أبو سليم، تاريخ الخرطوم، مرجع سابق، ص ٤٣.

ووصل السفور ببعض الجواري والخدم وأن يتغنين بآيات من القرآن الكريم. فقال الأستاذ الغالي[1] الحاج محمد بأنه قد سمع من أجداده الذين عاصروا دولة المهدية أن بعض الجواري في منطقة كردفان كن يرددن أغاني تحوي آيات من القرآن الكريم، مثل " التين والزيتون رايداك شديد انتومارتوني"!! قطعاً مثل هذا السلوك المشين لم يعجب المهدي فأراد أن يكون اتصال الناس بالقرآن الكريم اتصال إيمان ومعايشة لا اتصال حفظ وتلاوة، حتى أن المهدي في أحد منشوراته قال إن إهمال القرآن الكريم كان سبباً في انتشار البدع والضلال وإضعاف الدين والسنن في النفوس واستطرد حديثه قائلاً: "فلا يخفى أنه مع كثرة القراء السن ميتة والبدع زادت، بحيث صار لا ينكر فيها، فإذاة كان كذلك فلا همة للمواطن في هذا الزمن إلا إحياء الدين[2].

٣- غرس روح الجهاد في نفوس الدارسين الحيران. وذلك من خلال غزوات الرسول ﷺ[3].

٤- تعميق النواحي التهذيبية التي جاء بها الإسلام في نفوس الدارسين مثل التواضع، الزهد، التعاون، المروءة، المحبة، والمودة بين الناس[4].

٥- كما ركزت الأهداف على غرس حب العمل في النفوس واستغلال نعم الله التي سخرها كما قال تعالى:- ((هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور)) [5].

٦- تدريب الدارسين على تحمل المسئولية وذلك من خلال تكليف الكبار فمنهم من يحفظون القرآن الكريم يعلم صغار التلاميذ القراءة والكتابة وتحفيظهم صور القرآن الصغيرة، هذا فضلاً عن اشتراكهم في إدارة شئون الخلوة مثل جمع الحطب لإشعال نار القرآن، وهو ما يعرف بالتقابة[6] كما أن حيران هذه الخلاوي وغيرها من الخلاوي في السودان يشاركون في جلب الماء من الآبار أو النيل إعداد طعام ويعملون في مزارع شيخهم إذا كان لديه مزارع.

نخلص من ذلك إلى أن هذه الأهداف التعليمية، نجد أنها قد أولت القرآن الكريم والسن النبوية الشريفة عناية بالغة. كما ركزت على إخراج القبائل من ظلام الجهل والوثنية إلى نور العلم.

---

(١) مقابلة مع الأستاذ الغالي الحاج محمد أستاذ مساعد، جامعة أم درمان الإسلامية، كلية التربية، بتاريخ ١٩٩٥/١٠/٢٦م.

(٢) الفيوضات الوهبية لمسلمي "مخطوطة" الجزء الثالث، ص ١٣١، دار الوثائق القومية الخرطوم.

(٣) إسماعيل الكردفاني، سعادة المستهدي، تحقيق أبو سليم، بيروت، ١٩٨٢، ص ١٢٧- ١٢٨.

(٤) منشورات المهدي، الجزء الثالث "الأحكام والآداب"، ص ١٣٧، دار الوثائق القومية. تحت الرقم مهدية ١٥/٢/٨.

(٥) سورة تبارك الآية رقم ١٥.

(٦) التقابة هي مكان النار التي كانت توقد ليلاً ليلتف من حولهادارسي القران لمذاكرة ألواحهم ما بها من آيات قرآنية، وكان الجيران يجمعون الحطب للنار بالتناوب.

وقد انتشرت الخلاوي انتشاراً واسعاً في عهد الخييفة عبدالله حتى أن عدد الخلاوي في أم درمان وحدها بلغ ٨٠٠ (ثمانمائة) [١] ومما يؤثر عن الخليفة عبدالله أنه ألزم الناس لارتياد المساجد للصلاة،وتعلم القرآن كما ألزم جيشه بحفظ القرآن رغم قيامه بأعباء الجهاد[٢].

ومن الخلاوي التي اشتهرت في أم درمان عهد الخليفة عبدالله خلوة ودمكاوي في حيي الركابية، وخلوة الشيخ الجعلي جنوب ود نوباوي، وخلوة الفكي الأمين الضرير وخلوة ود كنة وخلوة الشيخ موسى الأحمدي وخلوة الشيخ الفكي الماحي بحي العمدة إلى جانب تلك الخلاوي وكانت هناك مدرسة أنشأها المهدي لتعليم الصبيان من أسرى الحبشة[٣] كما افتتحت مدرسة أخرى لتعليم أبناء الكبار كأن يدرس فيها أولاد المهدي وأولاد الخليفة عبدالله والخليفة شريف وعلي ود حلو وعهد أمرها إلى عثمان فريد. وكان يدرس فيها اللغة العربية والحساب والدين. وبها بعض المقرئين أمثال الشيخ على طلبة والشيخ الصاوي[٤].

ولقد كان تعليم الكتابة وحفظ من الخلاوي يسيران جنباً إلى جنب، حيث يبدأ الحيران (التلاميذ)، بتعليم الحروف الهجائية نطقاً وضبطاً وحركة وشكلاً ثم تبدأ عملية تعليم الكتابة والخط بأن يكتب الفقيه أو الحوار الكبير للتلميذ الصغير سورة قصيرة من القرآن الكريم، أو آيات بسيطة بكتبها له على لوحة المصنوع من الخشب بنوى التمر، فيتابع التلميذ بقلم البوص والعمار (الحبر) أثر الكتابة على اللوح، وبذلك يتعلم الكتابة والخط ويحفظ السورة الصغيرة في وقت واحد. وعندما يكمل الحوار حفظ جزء من القرآن يختص به وذلك بكتابة مطلع سورة خاتمة الجزء الذي حفظه، ويزين طرف اللوح بألوان زاهية، وتسمى تلك العملية (بالشرافة) ويإذن الفقيه لصاحبها ومعه بعض من رفقائه الحيران الصغار بعرض تلك الشرافة على الآباء والأمهات من المنازل والأسواق، ليشاركوا الخلوة فرحتها به الذي حفظ جزء من القرآن.

ويقدم الآباء الهدايا المادية والعينية لحامل الشرافة تشجيعاً للتلاميذ لحفظ القرآن وتكريماا لكتاب الله وكان الناس في يوم السوق يتصدقون بجزء من سلعهم لحيران الخلوة، فيأكل الحيران في أيام السوق لحماً وسمكاً وبلحاً وسمناً وعسلاً[٥].

وكان للخلوة صدقة من إنتاج الزراعة يسمى (صف الخلوة)، فكان للحيران وشيخهم عند الزواج، الختان، التسمية للمولود، وفي المأتم يقوم الحيران بتنزيل القرآن لروح المتوفي.

---

(١) محمد عمر بشير " تطور التعليم في السودان، دار الثقافة ببيروت ١٩٧٠، ص ٥٥(ونعني بمصطلح الخلاوي هي عبارة عن دور صغيرة لتعليم القران الكريم للصغار والكباروهي ايضا لتعليم الناس امور دينهم).

(٢) محمد إبراهيم، تاريخ التعليم الديني في السودان، ص ٣٣٩.

(٣) محمد إبراهيم أبو سلم، الحركة الفكرية في المهدية، ص ٥٢.

(٤) نفس المصدر السابق، تاريخ الخرطوم، ص ٩٧.

(٥) الشيخ بابكر بدري تاريخ حياتي، الجزء الأول، ص ٢٢.

ولعل هذا يوضح الترابط والتعاون الوثيق بين المجتمع ودور العلم، وبين الآباء والفقهاء في ذلك الوقت، ولقد كانت ثقة الأب كبيرة في شيخ الخلوة لدرجة أنه كان يقول الفقيه (الفكي) عندما يأتي بابنه لأول مرة للخلوة: ((هذا ابني أحضرته إليك لنعلمه القرآن وتهذيب أخلاقه ليك اللحم ولينا العظم))أي أنني صرحت لك بضربة إذا قصر في دروسه على ألا يصل الضرب إلى درجة كسر العظم جسده. والواقع أن الخلوة في عهد في المهدية أخذت مبدأ الشدة وسيلة للحفظ والتقويم والتهذيب، فالتلاميذ (الحيران) الذين يعجزون عن حفظ القرآن يتهربون من تسميع ما كتبوه من آيات قرآنية، هؤلاء كان يعاقبون باضرب على أقدامهم، بعد أن تربط رجلاً التلميذ على اله (الفلقة) هي سير من جلد البعير يسمى (الفرطوق) ثم يضرب الفقيه التلميذ على راحة قدميه بسوط قصير يسمى (الجدوى)[1] وتسمى عملية العقاب هذه باسم (أم سعد الله).

وقد كان ولاء خريجوا الخلاوي في عهد المهدية يحملون ولاء تاماً لخلوتهم وشيخهم ويحرصون على مكانته وزيارته كلما سنحت لهم الفرصة.

كما كانت هناك مدرسة نظامية وهي بمثابة الخلوة المتطورة وهي مرحلة الخلوة التقليدية يعلم فيها طلاب العلم الكبار تفسير القرآن، الفقه والتوحيد والحديث والمعاملات والميراث[2].

وكان من المحسنون من أهل الخير يتبادرون في فتح الخلاوي، ومن بين هؤلاء الشيخ حسن العبادي الذي افتتح عدة خلاوي متطورة لتدريس القرآن الكريم والعلوم الدينية في أم درمان. وجلب إليها المدرسين الخصوصيين على نفقته الخاصة ليحفظ الصبيان القرآن والتاريخ والمغازي والشعر[3].

وقد عهد الخليفة عبدالله الشيخ الطيب أحمد هاشم وكان مشهوراً بالعلم والتقوى عهداً إليه بتربية ابنه عثمان وتعليمه وتهذيبه وتدريسه التاريخ والأحاديث النبوية وآداب اللغة العربية[4] وقد حسنت سيرة ابنه فلقب(بشيخ الدين).

وعندما بدأت بعض المفاسد الاجتماعية تطل برأسها من جديد في عهد الخليفة عبدالله، عادت بعض القبائل إلى ارتكاب السلب والنهب والقتل[5] بدأت تظهر عمليات الاختلاسات من أموال الدولة واكتشفت عمليات ضرب الريالات المزيفة التي زعم قاضي الإسلام أحمد علي كان يقف من ورائها وعندما بدأ بعض جنود الدولة من الأنصار ينهبون ويسرقون ويقطعون الطرق غضب الخليفة عبدالله من هذه الأحداث والممارسات المخالفة لتعاليم المهدية، وعزى كل ذلك القصور للتربية وإلى عودة بعض العماء والأمراء إلى موروثاتهم التعليمية السابقة التي كان يرى أنها خلت من القيم الإسلامية كالأمانة والصدق والإخلاص والوفاء . فأمر بإعادة تربية المجتمع من جديد بدءاً بالقياديين في أجهزة الدولة والعلماء والقواد

---

(١) الشيخ بابكر بدري، نفس المرجع، ص ٢.

(٢) دفتر صادر رقم (١) ص ١٣٨) خطاب من محمد المهدي إلى الفقيه عبدالله بن محمد بتاريخ ١٣٠٢هـ، ١٨٨٥م، دار الوثائق القومية).

(٣) الدكتور أحمد شلبي، موسوعة النظم، المصدر السابق، المجلد الرابع، ص ٥٩- ٦١.

(٤) الدكتور عبدالرحمن المقبول، سيرة العارف بالله الشيخ حمد ود أمريوم، الخرطوم، ١٩٩٥م، ص ١.

(٥) الدكتور يحيى محمد إبراهيم، التعليم الديني في السودان، ص ٣٤٢.

العسكريين وزعماء القبائل وجعل الصلاة مفتاحاً لهذه التربية فألزم الجميع بحضور الصلوات الخمس وكان يحرص على حضور صلاة الجماعة وقراءة الراتب وضرب من القرآن الشريف بعد صلاتي الصبح والعصر[١].

لقد أمر الخليفة عبدالله أن يبدأ جميع الناس التعليم من جديد بصرف النظر عما درسوه أو حفظوه من قبل[٢] وطلب من كل الدارسين إحضار لوح من الخشب للبدء في كتابة القرآن وتربية الناس تربية إسلامية ومن أول يوم من محرم ١٣٠٣هـ أمن الدراسة الجماعية في جامع الخليفة[٣] وكان عدد الدراسين نحو ٤٥٠٠(أربعة آلاف وخمسمائة) دارس، وكان الحفظ لكبار من سورة الفاتحة والمعوذتين أما الصبيان فقد بدءوا من الحروف الهجائية (أ ب ت ث ..)إلخ.

أما القواد والعلماء والأعيان فقد طلب منهم إعادة تنزيل القرآن. وكانت الدراسة تبدأ في صلاة الصبح حتى الضحى ثم بعد العصر حتى نصف الليل أو دونه قليلاً.

وذلك تحت ضوء التقابة (نار القرآن) وكان الطلاب في كل حلقة يحفظون حزباً من القرآن في الصباح وحزباً آخر في المساء، وهذا إلى جانب حفظهم للراتب وقراءته يومياً. وكانت هذه الحلقات الدراسية مدة سنتين مستمرة واختتموا القرآن الكريم في السنة ألف مرة.

وكان ذلك في مسجد الخليفة بأم درمان[٤]، وكانوا يقومون بإحياء ليالي رمضان بالصلوات وترتيل القرآن والذكر والتسبيح، التهليل، التكبير، وقراءة راتب المهدي هذا إلى جانب النشاط التعليمي المكثف الذي كان يحدث في الثمانمائة (٨٠٠ خلوة التي ذكرناها سابقا).

أما التعليم الصناعي والمهني فقد رفضه المهدي كما رفض التعليم المدني الحديث، كما ذكرناه، باعتبار تعليماً دنيوياً، ولكن الحصار الذي شهدته دولة المهدية في عهد الخليفة عبدالله من الدول الاستعمارية (بريطانيا، مصر، إيطاليا، فرنسا، بلجيكيا، والجنوبي الغربي من الحبشة من الشرق) هو الحصار الذي أدى إلى توقف استيراد الأسلحة والذخيرة وبعض السلع الضرورية الأخرى. جعل الخليفة عبدالله يجيز ممارسة التعليم الصناعي والمهن لسد النقص في احتياجات الدولة من البارود والرصاص والمواد الأخرى. وقد استعان الخليفة عبدالله بالخبراء الأوربيين فمن وقعوا في أسر المهدية ودخلوا الإسلام وهم (المسلمانيون) أمثال نيو فيلد تاجر الأسلحة الألماني الذي أسره الأنصار أثناء قيامه بعملية تهريب كمية من الأسلحة من مصر لدار الكبابيش كما استعان أيضاً بالأسير سلاطين باشا مدير بحر الغزال سابقاً. وبالدكتور حسن

---

(١) يحيى محمد إبراهيم، التعليم الديني في السودان، ص ٣٤٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٣٨- ٣٤٠.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) هو المسجد المشهور بجامع الخليفة وهو فضاء محاط بسور من الحجر ويقع قرب منزل المهدي والخليفة. وقد اتخذ المقر مسجداً منذ أيام المهدي، إلا أن الخليفة هو الذي سوره في ١٠٣هـ وأطلق عليه اسم جامع الخليفة وهو مسجد مكشوف، وكانت به رواكيب من القش والمسجد موجود الآن وسط أم درمان لكن محرابه قد تهدم واختفى (انظر التفاصيل والبيانات الواردة عن هذا المسجد في كتاب سعادة المستهدي للكرفاني، ص ٣٩٣).

أفندي زكي من أطباء الخرطوم[1] وقد اهتم الخليفة عبدالله بجمع الكبسول وأمر بعض الصاغة في أم درمان بصناعته وأرسل بعض مناديب من بيت المال للبحث والتنقيب عن الرصاص في جبل مرة[2].

وقد قام نيوفيلد بتعليم صغار الأنصار بتصفية وتحضير المواد الخام اللازمة لصناعة البارود مثل الملح الصخري والجير، القطن، الكبريت والسبيرتو الذي كان يستخرج من البلح[3] كما أنشأت المهدية مصنعاً لصناعة الخرطوش في منطقة الخرطوم بحري، وهو نوع من السلاح (البندقية) ومصنع آخر للبارود بأم درمان بالقرب من بيت المال، أشرف عليه أحد الأوربيين (نيوفيلد) بعد أن أطلق الخليفة صراحة ليقوم بتدريب وتعليم الأنصار صناعة البارود[4].

ولا شك أن التعليم الصناعي الحربي قطع درجة متقدمة في عهد الخليفة عبدالله، أما الصناعات الخاصة مثل صناعة الأسلحة البيضاء وغزل القطن ونسجه وصناعة اللالات الزراعية قد شجعت الدولة المهدية على تعلمها لمواجهة الحصار الاقتصادي من قبل دولة الاستعمار.

خلاصة القول: أن التعليم في عهد المهدية عكس الحالة والنظم الاجتماعية في السودان، وأسرهم في تخريج عدد كبير من الصبيان والشيوخ يعرفون القراءة والكتابة ويحفظون القرآن كتاب ويحسنون الطهارة والوضوء، الصلاة، حتى أن بعض زعماء القبائل كانوا يقولون بعد أن زالت دولة المهدية، أنه لو كان هناك فضل واحد للخليفة عليهم أنه ألزمهم بحفظ القرآن كما ذكرنا ذلك سابقاً في (الفصل الرابع، في الحديث عن المجتمع) بعد أن غطى الشيب روؤسهم[5].

وإذا كان التعليم في دولة المهدية قد حقق أهدافه الدينية بما أفرزه من خريجين قاموا بأعمال جليلة وتضحيات كبيرة من أجل رفع راية الإسلام وتحرير السودان من سطوة الأتراك وفسادهم وظلمهم للناس وما قدمه من خريجين من الخلاوي ساهموا في تربية النشىء كأباء ومدرسين، فقد عجز التعليم في دولة المهدية عن توفير الفئات (الكوادر) المتخصصة في العلوم المتصلة بحياة الناس الصحية والمهنية، كالطب وإدارة ماكينات كبس القطن وحلجة، كما عجز عن توفير الفنيين المطلوبين لإصلاح البواخر النيلية وعن المحاسبين وعمال البريد (التلغراف) والمترجمين للغات الأجنبية، وهي عملية تعليمية مهنية سبق أن قطع فيها السودان شوطاً متقدم في العهد التركي المصري.

هذا وقد تأثر المجتمع السوداني بنقص المتخصصين في العلوم العلمانية، إذ تعطلت معظم الخدمات الصحية فأغلقت الصيدليات ومعظم المستشفيات التي كانت منتشرة في العهد التركي المصري في كل أنحاء السودان بسبب عدم توفر الكوادر الطبية المتخصصة، وعاد المجتمع السوداني مرة أخرى إلى إستخدام الأدوية البلدية والعلاج بالأعشاب

---

(١) نعوم شفير، المرجع السابق، ص ١٢٥٥.

(٢) نفس المرجع، ص ١٢٥٤.

(٣) القدال، السياسة الاقتصادية للدولة المهدية الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، ص ٩٨- ١٠٠.

(٤) محمد أبو سليم، تاريخ الخرطوم، مصدر سابق، ص ٧٥.

(٥) يحيى محمد إبراهيم، تاريخ التعليم الديني مصدر سابق، ص ٣٤٠.

وغيرها، كما عجزت الوحدات الحسابية أداء دورها الحسابي دواوين الدولة لندرة المحاسبين المؤهلين رغم محاولات دولة المهدية تكملة هذا النقص بتدريب بعض شباب الأنصار على أيد أمين المال على الأعمال الكتابية، الحسابية والمراسلات.

ولعل السبب في عزوف الناس عن العمل الديواني في عهد المهدية أن المهدي رفض فكرة دفع مرتبات شهرية للعاملين، كما كان في العهد التركي بحجة أن العمل في دواوين الدولة عبادة، فقد أرسل إلى موظفي التلغراف خطاباً حينما طالبوا بمرتباتهم الشهرية، جاء فيه ((... ولتكن خدمتكم هذه قصداً لوجه الله تعالى حيث فيها خدمتنا التي هي راحة المسلمين))[1].

وتذكر الروايات أن الخليفة عبدالله قد تميز بحس وطني رفيع، كما نرى كان متلهفاً لليوم الذي تتم فيه سودنة الوظائف الحسابية والكتابية، في دواوين الدولة المهدية من أولئك الأقباط المسلمانين الذين حجزتهم المهدية في السودان للانتفاع ببضائعهم ومعارفهم الكتابية.

وعندما تخرجت أول دفعة من المحاسبين الأنصار دربوا على الأعمال الحسابية والكتابية في بيت المال وقد أشرف الخليفة على عملية السودنة حين نصب عدد من المحاسبين والكتبة الأنصار في محل الأقباط[2] وكذلك في الأقاليم، وقد أدت عملية السودنة إلى تدني مستوى الإدارة والأعمال الحسابية والكتابية لأن الموظفين الجدد من الأنصار كانوا أقل معرفة وخبرة في المسائل الحسابية والكتابية عن الموظفين في العهد التركي المصري.وقد أوقفت المهدية البعثات التعليمية إلى مصر الأمر الذي نجم عنه تعطل ماكينات صناعة القطن. كما أغلقت أبواب الثقافة والعلم بين مصر والسودان[3].

---

(١) الفيوضات الوهيبية (مخطوط) مصر الجزء الثالث، ص ١٧٩ ، دار الوثائق القومية الخرطوم.

(٢) نعوم شفير، المصدر السابق، ص ١١٨١.

(٣) محمد إبراهيم أبو سليم، تاريخ الخرطوم، ص ١٢٩.